كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

الاغتراب في شعر ابن أيدمر المستعصمي

(٦٣٩: ٧١٠هـ)؛ عرض ودراسة

إعداد

د. مصطفى فاروق عبدالعليم محمود

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنات ببني سويف – جامعة الأزهر

(العدد الرابع والثلاثون – الجزء الأول ٢٠١٥م)

الملخص

إنّ الاغتراب ظاهرة إنسانية، امتد وجودها في كل الثقافات؛ وشملت جميع مناحي الحياة، وراح الشعراء في مختلف العصور يعبّرون عنها بما يمتلكون من حس مرهف، وجمال في التعبير، ويُعد (ابن أيدمر المستعصمي) من الشعراء الذين لاقوا إجحافًا كبيرًا من الباحثين؛ فلم يتعرضوا إلى نتاجه الشعري إلا بالجمع، والتخريج، وعُد من الشعراء المقلّين، وأثناء استقرائي لشعره؛ تبيّن لي أنّه أحد الشعراء الذين عبّروا عن ظاهرة الاغتراب في شعرهم، فملامح الاغتراب عنده تُشكّل ملمحًا عامًّا؛ حتى لنكاد نلمح وراء كل قصيدة أو مقطوعة روح الاغتراب، ومن يقف أمام معانيه، وأفكاره يلتمس عمق الهوة بين ذاته، وبين الآخرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين نبينا محمد خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه ومَنْ تأدب بأدبه، وسار على هديه، واتبع سنته إلى يوم الدين.

أما بعد...

فأوشكت أن استرسل فيما دأب الباحثون على التعرض له، حين يتناولون دراسة ظاهرة أدبية، أو موضوعًا يتعلّق بشاعرٍ من الشعراء، من الإطناب في الحديث عن الشاعر وشعره، ولكن سريعًا ما أحجمت عن ذلك؛ إذ أدركت أنّه لا يمكنني أن أضيف جديدًا فيما يتعلق بحياة (ابن أيدمر المستعصمي)[١] وشعره؛

---

(١) (ابن أيدمر المستعصمي) (٦٣٩ – ٧١٠ هـ) هو فلك الدين أبو نصر محمد بن سيف الدين أيدمر بن عبدالله المستعصمي، الأمير الكاتب الأديب، من أبناء الأمراء الأعيان العظماء، كان والده أحد أمراء طوائف القبجاق وكانوا ذوي ثراء، وأنعام كثيرة، وملوكًا ... حتى ظهر (جنكيز خان) وسباهم لمَّا لم يطيعوه، وولد (ابن أيدمر) في بغداد سنة تسع وثلاثين وستمائة، واستشهد والده وهو يدافع عن (بغداد) ضد التتار سنة ست وخمسين وستمائة، وكان لـ(ابن أيدمر) مكانة عالية في بلاط الخلافة العباسية؛ كما كان يُنسب الشاعر إلى الخليفة (المسعتصم) آخر خلفاء الدولة العباسية ولاء، وبسقوط الدولة العباسية، ومقتل الخليفة تبدّلت الأيام، ووقع (ابن أيدمر) في الأسر، واقتيد إلى(مراغة) عاصمة التتار، ثم اتصل بعد ذلك بـ(هولاكو) واستعمله فترة من الزمن، ثم قضى (ابن أيدمر) بقية حياته يعاني نوازل الدهر من فقر، وموت ابنيه، وتزهّد(ابن أيدمر) في آخر حياته، وعكف على طلب العلم، أما عن آثاره الأدبية فأبرزها: كتابه الموسوم (الدر الفريد وبيت القصيد)، ويدل هذا الكتاب على ثقافة(ابن أيدمر) الواسعة؛ وللشاعر شعر جيد مبثوث في ثنايا كتابه، ولم يجمع (ابن أيدمر) شعره، ولم تذكر المصادر أنّ لـ(ابن أيدمر) ديوانًا= =وأول من جمع شعره

وبخاصة أننّا لا نعلم إلا القليل عن حياة الشاعر، وشعره، وما يمكن أن يستنبط من استقراء هذا الشعر؛ ومن ثَمَّ عزمت ألا أتناول من حيـاة الشاعر، وشعره إلا ما يفيد صب دراستي.

قد حظيت ظاهرة الاغتراب في الشعر العربي بدراسات متنوعة، ودارت حولها أبحاث كثيرة، إلا أنّ هذه الدراسات على كثرتها، وتنوّعها لم تشر من قريب، أو بعيد، إلى (ابن أيدمر المستعصمي)، بل أغفلت الحديث عن الشاعر وشعره.

مصطفى حسين محمد عناية (دكتور) في بحث بعنوان (شعر محمد ابن أيدمر : جمع وتوثيق ودراسة)، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة (جامعة الأزهر) ع٢٣، ص ٣٢٤:٢٧٧، مصر ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، وزعم سعود محمود عبدالجابر(دكتور) أنّه أول من جمع شعره في بحثه الموسوم (ابن أيدمر، ٦٣٩ – ٧١٠هـ: حياته وما أمكن الوصول إليه من شعره)، مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية بدبي، ع ٣٠، ص٣٧٣: ٤٢٠، الامارات ٢٠٠٥م، ثم أعاد إخراج بحثه ككتاب مطبوع بعنوان: (ابن أيدمر: حياته وشعره) الطبعة الأولى، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان١٤٣١هـ/٢٠١١م، وظل شعر (ابن أيدمر) أرضًا بكرًا – فيما أعلم– إلى يوم كتابة هذا البحث. راجع ترجمته: مجمع الآداب في معجم الألقاب: ابن الفوطي الشيباني، تحقيق/ محمد الكاظم ٣/ ٢٨١–٢٨٢، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران ١٤١٦ هـ، وتلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب: ابن الفوطي الشيباني، تحقيق/ مصطفى جواد (دكتور) ٤/ ٥١٢: ٥١٤، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا(د.ت)، فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق/ إحسان عباس(دكتور) ٤/ ٢٦٣، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م، والدر الفريد وبيت القصيد: محمد بن أيدمر، صورة عن المخطوط أصدرها فؤاد سزكين ١/ ٩، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت ١٩٨٨م، والفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ابن الطقطقي، صـ٨٠، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦م، ومقدمة كتاب الدر الفريد وبيت القصيد: محمد بن أيدمر المستعصمي، تقديم، وتحقيق/ وليد محمود خالص(دكتور)، صـ١٤وما بعدها، المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٣م.

وأثناء مطالعتي لشعر (ابن أيدمر المستعصمي)، وجدته أحد الشعراء الذين عبّروا عن ظاهرة الاغتراب في شعرهم، وملامح الاغتراب وجدتُها-عنده- تُشكّل ملمحًا عامًا في شعره، وقد تناول الشاعر هذه الظاهرة في شعر عذب جميل.

وقد دفعني كل ذلك إلى البحث، والتنقيب في شعر الشاعر بعين ثاقبة لاقطة تستخرج من شعره ما عساه أن يخدم الفكرة المنشودة من البحث، ويعمل على توضيحها، وترسيخها.

وأكاد أجزم أن أحدًا من الدارسين، أو الباحثين لم يطرق هذا الموضوع من قبل، أو يخصه ببحث مستقل، . فلم أعثر على أي دراسة تناولت شعر الشاعر سوى دراستين قامتا بجمع شعر الشاعر، وتخريجه، والتقديم له[١] .، وقد هالني عدم وجود دراسات أدبية عساها تكشف عن هذا الشاعر وشعره، ومن هنا جاءت أهمية البحث في الكشف عن جانب آخر يُعد جديداً يضاف إلى ميدان الأبحاث، والدراسات الكثيرة التي دارت حول ظاهرة الاغتراب في الشعر العربي، وتميط اللثام عن شعر (ابن أيدمر المستعصمي).

والمصدر الأساس الذي استقيت منه مادة البحث هو شعر الشاعر، إلى جانب بعض المصادر، والمراجع التي سوف أجعل لها ثبتًا في نهاية البحث.

وسوف ألقي الضوء فيما يلي من صفحات على : مفهوم الاغتراب ، والفرق بين الغُربة والاغتراب، وأنواع الاغتراب، ثم أتحدث عن العوامل التي أدت إلى ظهور الاغتراب في شعر الشاعر، ثم أعرض لأنواع الاغتراب في شعر (ابن أيدمر)

(!) الدراسة الأولى: (شعر محمد بن أيدمر: جمع وتوثيق ودراسة) لمصطفى حسين محمد عناية (دكتور)، والدراسة الثانية: (ابن أيدمر، ٦٣٩ – ٧١٠هـ : حياته وما أمكن الوصول إليه من شعره) لسعود محمود عبدالجابر(دكتور).

سواء أكان اغترابًا اجتماعيًّا، أم اغترابًا عاطفيًّا، أم اغترابًا وجوديًّا، أم اغترابًا نفسيًّا، أم اغترابًا مكانيًّا، مع إبراز مظاهر كل لون منها في شعر الشاعر، ثم أختم البحث بذكر أهم خصائص ظاهرة الاغتراب في شعر(ابن أيدمر).

١ـ الاغتراب

الاغتراب ظاهرة إنسانية، شغلت المفكرين، والباحثين على مر العصور، وعَبّر عنها الشعراء، وتعبير الشاعر يكون أكثر دقة ووضوحًا؛ لأن "الشاعر بما يمتلكه من قدرة على الرؤية العيانية المباشرة التي يخبرها كومضة سريعة للبصيرة (in sight) وليس للرؤية(vision) يصل بها إلى ما يمكن أن نسميه وعيًا نقيًّا، شفافًا، للوعي الخالص الذي يعني وقائع الواقع، وبخاصة واقعنا العربي."(١)

١ـ ١ الفـرق بين الغُـربة والاغتراب

بادئ بدء يجب الإشارة إلى أنّ ثمة فرق بين الغُربة والاغتراب على الرغم من أنّ معاجم اللغة، وبعض المعاجم الأدبية جعلتهما من المترادفات اللفظية، إلا أننّا نلمس فروقًا بينهما من حيت الدلالة، فالغُربة: هي البُعد والتنحي عن الناس؛ لأسباب قاهرة –خارج الإنسان– كمعنى مجرد، بينما الاغتراب: افتعال الغُربة، والخروج على القيم والأعراف والتقاليد التي يؤمن بها المجتمع، وكذلك هو عجز عن التأثير في المجتمع –داخل الإنسان– ؛ وبمعنى أوضح الاغتراب طوعًا، والغربة تُفرض قسرًا.(٢)

---

(١) الفلسفة والشعر الوعى بين المفهوم والصورة: وفاء إبراهيم (دكتور)، ص١٢– ١٣، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٩م.

(٢) راجع: الغُربة في الشعر الجاهلي: عبدالرازق خشروم، ص ١٢– ١٣، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٢م.

وذكر ابن منظور "والغَرْبة والغَرْبُ: النَّوَى والبُعْد،...والاغْتِرابُ: افتِعال من الغُرْبة"[١].

وإذا أردنا الحديث عن العلاقة بينهما؛ فقد يكون الاغتراب نتيجة للغُربة، وقد نجد غُربة ولا نرى اغترابًا، وقد يعاني الإنسان من الاغتراب، ولا نجد غُربة.

ومن هنا الاغتراب في اللغة: هو افتعال من الغُربة، ويكون طوعيًّا، والاغتراب اصطلاحًا: هو اختيار الاغتراب دون إكراه أو إجبار إما لعدم انسجام، أو لعجز عن الانتماء إلى المجتمع وتقاليده، أو اختلاف بسبب التميّز والإبداع والتعالي عن المجتمع، ويكون الاغتراب طوعيًّا.[٢]

١-٢ مصطلح الاغتراب في الفكر الغربي

سبق وأن ذكرنا أنّ الاغتراب ظاهرة إنسانية، يمتد أثرها في معظم أنماط التراث الإنساني لدى مختلف الأمم؛ ومن ثم لا كراهة في إلقاء الضوء –ولو بإيجاز– على معنى الاغتراب في الفكر الغربي؛ فيذكر (شاخت) أنّ الاغتراب (Alienation) يدور حول ثلاثة معانٍ: هي نقل الملكية، والاضطراب العقلي، و الغُربة بين البشر[٣]، وأنّ المقابل لـ(اغتراب، أو غُربة) هو الكلمة الإنجليزية (Alienation)، والكلمة

---

(١) راجع: لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الأفريقى (٦٣٠هـ)، مادة (غ.ر. ب)، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت (د.ت).

(٢) راجع: لسان العرب مادة (غ.ر.ب)، وراجع –أيضًا–: ظاهرة الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر العباسي الأول: فتحي إرشيد محمد شديفات، ص ٢٤، الطبعة الأولى، دار الطريق للنشر، الأردن ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

(٣) راجع: الاغتراب: ريتشارد شاخت، ترجمة /كامل يوسف حسين، ص ٦٣: ٦٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠م.

الفرنسية (Alienation)، وفي الألمانية (Entfremdung)، وقد اشتقت كل من الكلمة اللاتينية (Alienare) التي تعني نقل ملكية شيء ما إلى آخر، أو تعني الانتزاع أو الإزالة وهذه الكلمة مستمدة من كلمة أخرى هي(Alienus)، أي الانتماء إلى شخص آخر أو التعلق به، وهذه الكلمة الأخيرة مستمدة في النهاية من اللفظ (Alius) الذي يدل على الآخر سواء أكان اسمًا أم صفة.[١]

وتدل كلمة الاغتراب في الموسوعة الاجتماعية على: "ضياع المرء وغُربته عن ذات نفسه، أو عن المجتمع الذي ينتمي إليه، أو عن الهيمنة على العمليات الاجتماعية والاقتصادية."[٢] ونجد أنّ هذا التعريف يهتم بالكيانات سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية.

١ـ ٣ مصطلح الاغتراب في الفكر العربي

مفهوم الاغتراب: هو حالة نفسية يعاني منها الفرد، ويشعر معها بعدم الصلة بالواقع المعاش، وبُعد الهوة بينه وبين الآخرين، على الصعيدين: الأسري، والاجتماعي، بحيث يؤدي هذا الانفصال إلى ركون الفرد إلى العُزلة والانطواء وتحقير الذات، وذلك لعدم الشعور بأهمية ما يقوم به من أعمال، وبالتالي، فإنّه يُعد حياته نوعًا من الهراء المعاش.[٣]

---

(١) راجع: الاغتراب عند إيريك فروم: حسين محمد حسن حمّاد (دكتور)، ص ٣٨، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٩٥م.

(٢) موسوعة العلوم الاجتماعية: ميشيل مان، ترجمة / عادل الهواري، وآخرين ص ٤٧، مكتبة الفلاح، بيروت ١٩٩٤م.

(٣) الشباب والاغتراب: علي الزعل وآخرون، مؤتة للبحوث والدراسات، مج ٥، ع . ٢ ، ص ٤٩، الأردن ١٩٩٠م.

ويعني الاغتراب –أيضًا– "عملية تحويل منتجات النشاط الإنساني والاجتماعي إلى شيء مستقل عن الإنسان، ومُتحكّم فيه"[١]، ومن ثم فالمنُتج هو الشيء الرئيس محل التدقيق في هذا التعريف الفلسفي.

ومِنْ الباحثين[٢] مَنْ ذكر أنّ الاغتراب "هو وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته، والبيئة المحيطة به، والمحيطة له، وبصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء، والسخط والقلق."

وبناء على ما سبق يمكننا القول: إنّ الاغتراب في الشعر: هو حالة من حالات التأزم تصيب الشاعر؛ نتيجة عدة عوامل، منها ما هو بداخل الشاعر، ومنها ما هو خارجي؛ فتؤثر على حالته سواء أكانت الاجتماعية، أم العاطفية، أم النفسية...وتتنوع مظاهر هذا الاغتراب بين الشكوى، والقلق، وذم المجتمع، والتمرد، وغيرها ....

٤-١ جذور الاغتراب في الشعر العربي

قد يتوهّم البعض أنّ ظاهرة الاغتراب ظاهرة حديثة؛ لما دار حول مفهومها من جدل كبير في العصر الحديث، والحقيقة "أنّ الإنسان منذ أن بدأ يضرب في الأرض قد حمل بين جوانحه ضروبًا من الإحساس بالاغتراب، حتى لقد تلوّنت قطاعات عريضة من أدبه –بعد ذاك– بهذا الإحساس"[٣]، وترجع ظاهرة الاغتراب في شعرنا العربي إلى أقدم العصور الأدبية؛ فمنذ نشأة الشعر، والشعراء يعبّرون

---

(١) معجم المصطلحات الفلسفية: مراد وهبة، ص ٨٠، ط٤، دار قباء، القاهرة، مصر ١٩٩٨م.

(٢) فاطمة محمد حميد السويدي؛ الاغتراب في الشعر الأموي: ص ٣، ط١، مكتبة مدبولي ١٩٩٧م.

(٣) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث: ماهر حسين فهمي، ص ٧، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٠م.

عَبْرَ أشعارهم عن مشاعر الاغتراب؛ إذ ظل "الاغتراب إحدى وسائل الكشف عن دقائق حياة الجاهلي، وتفاصيلها، وإحدى صور الغوص وراء معطيات عالمه الخاص، وقد حدا به إلى ضرب من الانطواء بالمعنى النفسي، أو عكس ذلك من الرغبة الجامحة في تجاوز القيم، والانفتاح على مادة الواقع، وإن تنوّعت صور هذا التجاوز، أو غير ذلك من مواقف تحكيها لحظات الإحساس بالفقد والحرمان، أو معايشة عالم الضياع، أو الوقوف عند منطقة الاستسلام والانهزام البشري، إلى غير ذلك من أبعاد تحكيها قصة شاعر المعلّقة عَبْرَ صراعه الطويل، مع عالمه الواقعي، والشعري بصفة خاصة."[١]

وإذا راجعنا المقدمات الطللية التي استهل بها شعراء العصر الجاهلي قصائدهم؛ وجدناها دفقات شعورية تعبّر عن مشاعر الاغتراب سواء أكان مكانيًا، أم عاطفيًا، أم نفسيًا....، وكذا أشعار عنترة، وطرفة، وزهير، والنابغة... وغيرهم من شعراء العصر الجاهلي نجدها تجارب شعرية تعبّر عن حالات من التأزم سواء أكان من المجتمع، أم الوجود، أم المحب، وجميعهم يعاني من القلق، والشكوى، ولو تأملنا أشعار الصعاليك لوجدناها صورًا شتى من الثورة على قيم المجتمع، والتمرد، وشكوى قبائلهم....وتُعد جميعها حالة من حالات الاغتراب الشعري، وإذ تأملنا قصيدة كعب بن زهير (المسماة البردة)، وجدناها حالة من حالة الاغتراب، بدا فيها القلق، والخوف، والتوتر، والشكوى، وطلب العفو وغيرها من مظاهر الاغتراب، وكذا ذو الرمة وما عاناه من اغتراب عاطفي مع محبوبته (ميّة)، ثم أبو تمام، والمتنبي، والشريف الرضي، وأبو العلاء... وغيرهم إلى أن نصل إلى البارودي في العصر

(١) ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات: مي يوسف خليف (دكتور)، ص١٥-١٦، دار الثقافة، ط١، القاهرة ١٩٩٠م.

الحديث وقصيدته (طيف سميرة)[١] وما حملت من أشواق، وآلام رسمت لنا اغتراب الشاعر.

١ـ ٥ أنواع الاغتراب

كما واجه الباحثون إشكالية كبيرة في تحديد معنى الاغتراب؛ وكان لكل وجهة هو موليها؛ لما يعتري هذا المصطلح من غموض وتعقيد؛ فإنّ تحديد أنواعه كانت مُعضلة أخرى أكبر إذ إنّه "ليس هناك شيء يسمى بالاغتراب الشامل الذي يجمع أنواعًا من الاغتراب لا تُعد ولا تُحصى كانت موجودة ولا تزال موجودة، وسوف تأتي إلى الوجود (بدون شك) مع استمرار المغامرة الإنسانية، في السير في دروب الوجود المتعددة والمتباينة، ولعل علماء الاجتماع والفلاسفة الاجتماعيين يُحسنون صنعًا إذا وجّهوا اهتمامهم إلى هذه الأنواع، وذلك لأنها تشتمل على العديد من أهم الإمكانات التي يمكن أن تظهر على طريق الدراما المستمرة للحياة والتجربة الإنسانيتين."[٢]

وعمومًا فقد سلك الباحثون عدة مسالك في تقسيم الاغتراب[٣] تبعًا لطبيعة الدراسة، ونوعها، واعتمدنا في هذا البحث- حسب طبيعة شعر (ابن أيدمر

---

(١) راجع: مظاهر الاغتراب في قصيدة "طيف سميرة" لمحمود سامي البارودي: عبد الباسط محمود الزيود(دكتور)، وثناء نجاتي عياش(دكتور)، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (١٠) العدد(٢)، ص: ٢٠٠: ٢٧٩، الأردن ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤م.

(٢) مستقبل الاغتراب مع دراسة بعنوان المشروع الفلسفي عند ريتشارد شاخت: ريتشارد شاخت، ترجمة/ وهيبة طلعت أبو العلا، صـ ٥٩، منشأة المعارف (د. ت).

(٣) هناك من الدراسات الأدبية من قسّم الاغتراب إلى معنوي وحسي، منها: (الاغتراب في شعر الرصافي): أحمد السيد أحمد حجازي، مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية (الامارات) ع ٢١، ص ٣٤٣ – ٣٨١، يونيو ٢٠٠١م، ومنها من قسّم الاغتراب إلى: اغتراب سياسي،

المستعصمي)- تقسيم الاغتراب إلى اغتراب اجتماعي، واغتراب عاطفي، واغتراب وجودي، واغتراب نفسي، واغتراب مكاني، ومع هذا التنوّع في الاغتراب إلا أنّ مظاهره تتداخل -أيضًا-؛ فنجدها في العزلة، والشكوى، العجز، والافتقار، وفقدان معنى الحياة، وتفكك المعايير، والعُزلة الاجتماعية، وفقدان الإنسان لذاته، والتمرد الاجتماعي... وغيرها من هذه المظاهر.

واغتراب مكاني، واغتراب روحي، منها: (الاغتراب في شعر أحمد مطر): معتز قصي ياسين، مجلة دراسات البصرة السنة السابعة العدد (١٤) صـ٤٦: ٦٤، العراق ٢٠١٢م، ومنها من قسّم الاغتراب في الشعر إلى: اغتراب وجودي، واغتراب اجتماعي، واغتراب سياسي، منها: (الاغتراب في ديوان السيد هلال بن بدر البوسعيدي) إحسان بن صادق بن محمد اللواتي، مجلة جامعة الملك سعود- الآداب، مج ٢٣، ع ٢، ص٢٤٠:٢٢٣ السعودية ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ومنها من قسّم الاغتراب إلى قسمين، هما: الاغتراب التاريخي، والاغتراب الميتافيزيقي، منها: (الاغتراب في الشعر النسوي الخليجي): سعيدة بنت خاطر الفارسي، رسالة دكتوراه، صدرت من كلية دار العلوم بالقاهرة ، مصر ٢٠٠٢م، و(سوسنة المنافي: حميدة خميس وتحولات الاغتراب السياسي): سعيدة بنت خاطر الفارسي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر٢٠٠٣م، و(انتحار الأوتاد في اغتراب سعدية مفرح): سعيدة بنت خاطر الفارسي، مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠٠٥م.

٢ـ عوامل الاغتراب في شعر (ابن أيدمر)

وجود الاغتراب في شعر (ابن أيدمر) لم يأت من عدم، وإنّما توافرت عوامل داخلية وخارجية، أسهمت في بروزه في شعر الشاعر، من أبرزها:

٢-١ عصره

كان عصر (ابن أيدمر المستعصمي) (٦٣٩ هـ - ٧١٠ هـ)[١] عصر انحطاط وتدهور، وشتات، وتمزّق؛ مما بعث في شعر الشاعر روح الاغتراب؛ ولا شك أنّ طبيعة الحياة التي يعيشها الشاعر تؤثر في شعره، الذي ينتجه في حالة نضجه؛ إذ يظل لصيقًا بذات الشاعر وتجربته في مواجهة الحياة؛ ومن هنا تتنوع أساليب الشعراء ومعانيهم في تعبيرهم عن الموضوعات المتماثلة.

ففي عصر (ابن أيدمر المستعصمي) سقطت بغداد ودمرت، وقُتِلَ آخر خلفاء بني العباس الخليفة (المستعصم بالله) (ت ٦٥٦ هـ) مع كل أعيان دولته فضُربت أعناقهم، . بعد خيانة المؤيد العلقمي الوزير . حتى بقيت الرعية بلا راع، ثم دخل حينئذ التتار بغداد، وبذلوا السيف واستمر القتل والسبي نحو أربعين يومًا لم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وقُتِل الخليفة رفسًا -تحت الخيل-، ويقال إنّ (هولاكو) أمر بِعَدِّ القتلى فبلغوا ألف ألف (مليون) وثمانمائة ألف وكسر، فعند ذلك نُودي بالأمان.

وظل منصب الخلافة شاغرًا ثلاث سنوات ونصف، إلى أنْ استقدم السلطان المملوكي على مصر(الظاهر بيبرس)، عم الخليفة (المستعصم)، وبايعه بالخلافة سنة (٦٥٩هـ) وتسمّى بـ(المستنصر بالله)؛ لتبدأ دولتهم الثانية بمصر، بذات

(١) راجع: مجمع الآداب في معجم الألقاب: ٣/٢٨١-٢٨٢، وتلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب: ٤/٥١٢: ٥١٤.

الضعف الذي انتهت إليه في دولتهم الأولى، فالخليفة الثاني لهذه الدولة (الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد) الذي بُويع له سنة (٦٦١هـ)، سيُسجن من طرف (بيبرس)، بقلعة الجبل لمدة ثلاثين سنة، وكذا حال ابنه الخليفة أبو الربيع، سليمان (المستكفي بالله) إذ بُويع له بالخلافة سنة (٧٠٠ هـ)، بعهد من والده، ويغضب عليه السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) سنة (٧٣٧هـ)، وينفيه إلى (قوص) ويُبايع لأخيه (إبراهيم) بدون عهد، ولن يسلم السلاطين أنفسهم من هذا التمزق وآثاره، فـ(الناصر بن قلاوون) نفسه، سيخرج عليه الأمراء أثناء حكمه؛ ليتعرض للخلع مرتين أبان حكمه؛ الفترة الأولى امتدت لأربع سنوات (٦٩٤ هـ – ٦٩٨ هـ)، والثانية لسنة (٧٠٨ هـ – ٧٠٩هـ).[١] كل هذه الأحداث لعبت دورًا مهمًّا في بروز ظاهرة الاغتراب في شعر الشاعر(ابن أيدمر)، وخصوصًا أنّه لم يكن بمعزلٍ عنها؛ فقد نشأ وترعرع في بلاط الخلافة العباسية، وكان يُنسب إلى الخليفة المستعصم فـ"المستعصمي نسبة إلى الخليفة العباسي أبي أحمد عبد الله المستعصم؛ إذ كان والده سيف الدين أحد خواصه، ومعه تربى ونشأ، وقد أهدي، وهو صغير يرضع اللبن إلى والده الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور المستنصر."[٢]

(١) راجع : شذرات الذهب في أخبار من ذهب المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح، تحقيق/ عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، ٧/ ٤٦٧: ٧٩٩، ط ١، دار ابن كثير دمشق، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(٢) شعر محمد بن أيدمر: جمع وتوثيق ودراسة: ص ٢٧٧.

٢ـ٢ أصله الكريم

من العوامل التي كان لها دور في اغتراب (ابن أيدمر المستعصمي) في شعره أنّه كان من أصول كريمة فذكر (ابن الفوطي) أنّ (ابن أيدمر) كان من أبناء الأمراء الأعيان فعرّفه بقوله: "فلك الدين أبو نصر محمد بن سيف الدين أيدمر ابن عبدالله المستعصمي، الأمير الكاتب الأديب؛ من أبناء الأمراء الأعيان العظماء."[١]

ويحكي الشاعر عن نفسه قائلًا "كان والدي أحد أمراء طوائف القبجاق وكانوا ذوي ثراء، وأنعام كثيرة، وملوكًا لا يدينون بطاعة لأحد في بلادهم حتى ظهر جنكيز خان وسباهم، لما لم يطيعوه ..."[٢]، هذا الأصل الكريم الطيب عندما يعيش في عصر تبدّلت فيه القيم، والأخلاق، وحلّت محلها الحياة المادية المطلقة، والخيانة،... تغترب النفس، وتشعر بأزمتها بين أبناء دهرها.

٢-٣ فقره بعد غناه

سبق أن أشرت –آنفًا– إلى مكانة (ابن أيدمر المستعصمي) في بلاط الخلافة العباسية؛ ولكن بسقوط الدولة العباسية، ومقتل الخليفة (المسعتصم) تبدّلت الأيام؛ فيقع الشاعر في الأسْر، وهو يحاول صد جيوش التتار فقد " كان في جيش مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير في وقعة نهر بشير من دجيل سنة (٦٥٦هـ)"[٣]، وسقط أكثر جنده بين قتيل، وجريح، وأسير، واقتيد (ابن أيدمر) إلى (مراغة) عاصمة التتار.[٤]

---

(١) مجمع الآداب في معجم الألقاب: ٣/ ٢٨١.

(٢) الدر الفريد وبيت القصيد: ١/ ٩، مقدمة كتاب الدر الفريد وبيت القصيد: ص١٤.

(٣) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب القسم الثالث: ٤/ ٥١٣.

(٤) راجع: ابن أيدمر حياته وشعره : ص ١٢، ١٣.

ويبدو لنا من خلال استقراء شعر (ابن أيدمر المستعصمي) أنّه قد قاسى لوعة الفقر بعد زوال الخلافة العباسية، وأنّه كان يعتمد اعتمادًا كبيرًا على عطايا الأصدقاء؛ فعندما يتأخر هذا العطاء يضطر الشاعر أن ينظم قصيدة مدح يُبرز فيها شطف عيشه، ويتوسّل بها إلى ممدوحه، وهذا ما فعله الشاعر عندما تأخر عطاء والي العراق-علاء الدين عطا الله الجويني- فقال مادحًا إياه معبرًا عن شدة فقره:[١]

{الكامل}

مـالي ظميـتُ وبحـرُ جـودِكَ مُتْـرَعُ ... وعـــلامَ أطـــوِي والقِـــرى مبـــذولُ

وأحـومُ حـول الـوِرْدِ أطلـبُ خَلْـوَةً ... حاشـــاك يخلـــو رَبْعُـــكَ المـــأهول

فـي كـل عـامٍ لـي ببابِـكَ مَنْهَـلٌ ... عَـــذْبٌ وأنـــتَ القصْـــدُ والمـــأمول

والعـــامُ جَـــدْبٌ والعطـــاءُ مُيَسَّـــرٌ ... والإذنُ فـــي إطلاقِـــهِ مســـؤول

وعندما يُنعم الممدوح على الشاعر بعد توسله وسؤاله في الأبيات السابقة، ويعاود له العطاء وزيادة، يقول (ابن أيدمر المستعصمي):[٢]

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٦.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠١.

{الكامل}

الله أكبـــر قـــد بلغـــتُ بســـاعة ... مـــا لـــيس يبلغـــه امـــرؤٌ فـــي دهـــره

مـــا دار فـــي خلـــدي الـــذي قـــد نِلْتـــهُ ... أبـــدًا ولا نطـــقَ اللســـان بـــذكره

ومما يعبّر عن تأزم (ابن أيدمر) من الفقر، وخِسّة أبناء مجتمعه، وما عاناه منهم قوله:(١)

{الطويل}

وإن امـــرأ يرجـــو مـــن الكلـــب لقمـــةً ... وهيهـــات مـــا يرجـــو أخـــس مـــن الكلـــب

هذا؛ وقد قضى الشاعر آخر حياته فقيرًا مُعدمًا مَديونًا؛ مما دعاه إلى الخدمة في خزانة الوزير؛ فيذكر ابن الفوطي "أنّه –أي ابن أيدمر– قد علاه دين فخدم خزانة الوزير سعد الدين بالكتاب، وقضى دينه، واستراح خاطره فجاءه مالم يكن في حسابه وتوفي في رجب سنة عشر وسبعمائة."(٢)

ومعلوم أنّ الفقر يؤثر تأثيرًا قويًا في نفوس البشر، ويؤدي دورًا بارزًا في تشكيل أبناء المجتمع من حيث تشكيل نفسيتهم، وما يترتب عليه من سلوكيات متبادلة بينهم؛ وبخاصة لدى الشعراء منهم؛ لرهافة حسهم، وقدرتهم على التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم؛ من ثَمَّ برزت صورة الفقر في شعر (ابن أيدمر) كمظهر من مظاهر الاغتراب الشعرى لديه.

٢ـ ٤ فقد الأحبة

سبق القول إنَّ الشاعر قد عانى معاناة شديدة بعد مقتل الخليفة (المستعصم)، الذي نُسب إليه (ابن أيدمر) ولاء، ولقد واكب مقتل الخليفة

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٢.

(٢) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب القسم الثالث: ٤/ ٥١٤.

(المستعصم) مقتل والد الشاعر–أيدمر بن سكزبر كونجك[١]–وهو من أصل تركي[٢]، واستشهد والده أمام التتار "في صبيحة يوم الخميس، وهو عاشر المحرم، سنة ست وخمسين، وستمائة."[٣]

وكان للشاعر ولدان تُوفيَا في حياته، وهذا ما نفهمه مما جاء في حاشية من حواشي كتابه الموسوم بـ (الدر الفريد وبيت القصيد).[٤]

لقد عمّر (ابن أيدمر) إحدى وسبعين سنة تعرّض فيها لفقد الأحبة بالموت، والموت أعظم النوازل وأشدها، وهو مصيبة للأحياء؛ لما يعانون من لوعة الفراق، وآلام النفس، وبعد موت الأحبة يَشعُر الإنسان باغترابه عن هذه الدنيا ومَنْ فيها؛ ولقد عبّر (ابن أيدمر) عن مشاعر هذا الاغتراب في شعر حمل شحنات عاطفية، وآلام نفسية، وتجارب صادقة.

ومن ثَمَّ؛ فقد لعب المناخ التاريخي الذي عاش فيه (ابن أيدمر) دورًا بارزًا في تشكيل المعطيات التي شاركت في تحديد موقفه فمن المؤكد أنّ الواقع السياسي، وطبيعة الحياة التي يعيشها الشاعر تؤثر في شعره، ولقد توافرت العوامل التي تؤدي إلى الاغتراب عند الشاعر –كما ذكرت آنفًا–، إذ فجّرت هذه الحياة المريرة الاغتراب في نفس الشاعر، إزاء هذه الأحداث العظيمة في حياته، ويكمن إبداع الشاعر في قدرته على تحويل تجاربه الشخصية، ومعاناته النفسية إلى عمل فني راقٍ، ولقد كان للشاعر مكانة عالية في ظلال الدولة العباسية – قبل أسره –؛ مما جعله يشعر

(١) الدر الفريد: ١/ ٩.

(٢) شعر محمد بن أيدمر: جمع وتوثيق ودراسة: ص ٢٧٧.

(٣) الدر الفريد وبيت القصيد: ١/ ٩.

(٤) الدر الفريد وبيت القصيد: ٥/ ٢٧٢، وراجع: شعر محمد بن أيدمر: جمع وتوثيق ودراسة: ص ٢٧٧.

بالانتماء كونه جزءًا فاعلًا في المجتمع، وما رافق ذلك من الإحساس بالرضا والتميّز، وهو ما عبّر عنه في قوله:([1])

{الرمل}

نَحْـــنُ مـــن قـــومٍ كـــرامٍ ســـادةٍ ... ملكـــوا المُلْـــكَ وأمّـــوا بـــالأممْ

بســـطوا العـــدلَ لمـــن ســـالَمَهُمْ ... وأحَلُّـــــو بأعـــــادِيهِمْ نِقَـــــمْ

إنْ يرومـــوا الصَّـــعبَ يسْـــهُلْ لهـــم ... أو يُرامـــوا يَصْـــعُبُوا فيمـــا أَلَـــمْ

طَوَّقـــوا بـــالجودِ أعنـــاقَ الـــورى ... واســـــترقّوها بأســـــداء الـــــنِّعِمْ

ولكن هذه الأحاسيس تلاشت بعد سقوط الدولة العباسية؛ ليحل محلها الفقر، والعجز والضعف، والتهميش؛ فيلجأ الشاعر إلى الشكوى والزهد في الحياة؛ ليستعين بها على قسوة الدهر، وشدته؛ إذ إنَّ التجربة الشعرية لدى (ابن أيدمر) كانت وليدة نوازل الدهر، والمعاناة الذاتية، والمعايشة الوجدانية للملمات، كما أنّ (ابن أيدمر) عاش في عصر تغيّرت فيه الحياة العربية، وكان هذا التغيّر نتيجة عدة عوامل أبرزها: اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأجنبية؛ والترف والثراء الذي عاشت فيه فئة قليلة من أبناء المجتمع؛ بينما عاني أكثر أبنائه الفقر، وشطف العيش، فتقلّصت القيم العربية الأصيلة، التي كان قد حملها العرب في بواديهم شيئا فشيئا؛ لتحل محلها قيم جديدة، ابتعد فيها كثيرًا من أبناء المجتمع عن دينهم، وعاشوا حياة مادية خالصة، ولقد هال كثير من الشعراء مسلك مجتمعاتهم المنحرفة؛ فراحوا يشكون أبناء عصرهم، وزمانهم، لاجئين بشكواهم إلى ربهم مما أدي إلى اغتراب أكثر شعراء هذه الحقبة التاريخية، ومنهم الشاعر (ابن أيدمر).

٣. أنواع الاغتراب عند (ابن أيدمر)

(١) شعر محمد بن أيدمر: جمع و توثيق ودراسة: صـ ٣١١.

مع تنوّع أشكال الاغتراب في الدراسات الأدبية وفق الدوافع التي أدت إليه، من الضروري التأكيد على أنّ هذه الأنواع تتداخل، ويرتبط بعضها بالبعض الآخر بحيث يصعب الفصل –في أحيان كثيرة– بينها، فـ "نزاع الفرد مع نفسه يتطوَّر ويتسع فيظهر كأنّه انعكاس لنزاعه مع المجتمع كما أنّ نزاعه مع مجتمعه يتطور ويمتد فيغدو رمزًا لتنازعه مع الوجود والقدر والمصير، فالتجربة الشعرية تنطلق من الواقع الفردي، لكنها تكاد لا تنزع إلى التكامل حتى تعانق الواقع الاجتماعي وتحل فيه"[(١)] إلا أنّ الدافع –غالبًا– ما يبرز بقوة تجاه موضوع معين.

ومن هنا كان تحديدنا – في هذه الدراسة –لأنواع الاغتراب في شعر (ابن أيدمر) نابعًا من نتاجه الشعري؛ بمعنى أننا سنتوصل إلى أنواع الاغتراب في شعر الشاعر بناء على قراءتنا لشعره، وبيان الدافع الذي حرّك أحاسيس الشاعر، وأثّر في إبداعه الشعري؛ ومن ثم نقف على نوع الاغتراب سواء أكان اغترابًا اجتماعًا، أم عاطفيًا، أم وجوديًا، أم نفسيًا، أم مكانيًا....

وسوف نستعرض في الصفحات التالية، أنواع الاغتراب، ونعرض لمظاهره في شعر (ابن أيدمر) في أثناء تناولنا لهذه الأنواع.

٣-١ الاغتراب الاجتماعي

يُعد (الاغتراب الاجتماعي) من أبرز ألوان (الاغتراب) بوجه عام؛ لذا نجد من الباحثين من حصر مصطلح (الاغتراب) على (الاغتراب الاجتماعي)، فيذهب إلى أنّ "الاغتراب هو الشعور بافتقاد العلاقات ذات المعنى مع الآخرين، والإحساس

(١) في الأدب والنقد: إيليا الحاوي ، صـ ٩٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٩م.

بالتعاسة بسبب هذا الافتقاد"([1])، وإن كان هذا التعريف للاغتراب يُعد تعريفًا مبتورًا، فلا شك أنّه يدل دلالة بيّنة على أهمية الأثر الاجتماعي على شعور الشاعر باغترابه.

ومن الاغتراب الاجتماعي قول (ابن أيدمر):[2]

{الوافر}

فَأَقْـــدِمْ إنْ أردتَ علـــى المعـــالي وإلّا فـــــاطّرحْ عنـــــك الأمـــــانِي

وعـشْ فَـردًا وطِـبْ بـالفقرِ نَفْسًـا ولا تحفـــــلْ بأبنـــــاءِ الزمـــــان

في البيتين السابقين نجد الشاعر يعمد إلى الجمل الإنشائية التي يتراوح فيها أسلوب الأمر والنهي، ولعل السبب في ذلك مكونات نفسه التي ضاقت من قسوة المجتمع، وشدته؛ فنجد في هذه الأساليب الإنشائية تفريجًا عن كروبه، وهمومه، وتغدو نفسه أكثر اطمئنانًا حين يعبّر في أبياته بألفاظ وتراكيب تعبّر عن الرحيل والاغتراب؛(فاطّرحْ عنك، الأمنِي، وعشْ فَردًا، وطِبْ بالفقرِ نَفْسًا، ولا تحفِلْ)؛ فتُبرز ما في نفس الشاعر من ظلم اجتماعي، وهكذا تتضمن أبيات الشاعر ألفاظًا مُشعة تُوحي لنا بمدى اغترابه في مجتمعه، فكل "كلمة من كلمات اللغة لها دلالة معجمية أو اجتماعية تستقل عما يمكن أن تؤديه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الدلالة الأساسية التي يطلق عليها الدلالة الاجتماعية "[3]، وبناء

(١) الاغتراب: ريتشارد شاخت، ترجمة/ كامل يوسف حسين، صـ٢١٦، المؤسسة العربية، بيروت ١٩٨٠م.

(٢) شعر محمد بن أيدمر: جمع و توثيق و دراسة: صـ ٣١٥، الدر الفريد وبيت القصيد: ٣/ ٢٩٩ .

(٣) دلالة الألفاظ: إبراهيم أنيس (دكتور)، صـ ٤٨، ط ٣، دار الأنجلو المصرية ١٩٧٦م.

على التجربة الشعرية لدى الشاعر، وما عاناه من قهر اجتماعي؛ قد رأى أنّ منزلة الإنسان الاجتماعية تعلو حين يُقدِم على المعالي، ويسعى إليها بجد واجتهاد؛ وتوحي لنا كلمة (فردًا) بالاغتراب الذي يُعانيه الشاعر، والنسيج اللغوي في الشطرة الثانية من البيت الثاني (ولا تحفلْ بأبناءِ الزمان) توحي لنا بضيق الشاعر من أبناء مجتمعه، وعدم العبء بهم.

هذا؛ وقد تتشكل بعض مظاهر الاغتراب الاجتماعي بسبب الفقر؛ وكما قيل الفقر في الوطن غربة؛ إذ يضرب بشده بين فئات المجتمع، ونجد الشاعر في الأبيات التالية يعبّر عن انهيار القيم الاجتماعية، والتي تدفع النفس إلى الإحساس بالألم والاغتراب فيقول:(١)

{الكامل}

مَـنْ كـان ذا مـالٍ فـذلك عاقـلٌ ... المـالُ تتبـعُ إثـره الآمـالُ

والفقـرُ صـاحبه ذليـلٌ جاهـلٌ ... عسـرُ الحـوايجِ مُتْعَـبٌ مُحْتَـالُ

لـو كـان شـيءٌ فـوق مـا زانَ الفتـى ... مـن دينـه كـان الغِنَـى والمَـالُ

أو كـان شـيءٌ فـوق كُفْـرٍ شـاينُ ... كـان افتقـارُ المـرءِ والإقـلالُ

فالأبيات السابقة تعكس واقع الشاعر المؤلم، وثورته على بعض القيم التي سادت في مجتمعه، والتي عبّر عنها كثير من الشعراء والفقهاء، فبرجوع الشاعر إلى واقعه الاجتماعي؛ خَلُصَ إلى نتيجة تتمثّل في أنّ الإنسان الغني صاحب المال يُرى في أحسن الصور وأفضلها، بينما يعاني الفقير من الاغتراب والتهميش الاجتماعي، وجاءت تراكيب الشاعر مُعبّرة عن هذا الاغتراب والاضطراب، وعدم الاطمئنان، فهي تُعبّر عن نفس غير مستقرة مضطربة (من كان، لو كان، أو كان)،

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣١٥.

وكذا ألفاظه توحي باغترابه ومعاناته (الفقر، ذليل، الحوايج، مُتعب، ومحتال، كفر، شاين، افتقار، وإقلال)، وكلها ألفاظ تبرز لنا مظاهر الاغتراب الاجتماعي لدى الشاعر، وبخاصة إذا وازنا بين هذه الألفاظ وما يقابلها في الأبيات عندما يتكلم عن الغني، وما يلاقيه من مكانة اجتماعية، ويؤكد الشاعر على هذه الصورة التي رسمها لمجتمعه فيقول:(١)

{الخفيف}

صاحبُ المال في القلوب مهيبٌ حَسَنُ السَّمْتِ عن ذوي الألبابِ
وأخو الفقرِ لو أتى بصنوف الـ ـعلمِ طُرّا مُسَفَّه في الخطاب

فعَبْر هذه اللوحة الفنية التي قد رسمها الشاعر في البيتين السابقين يبرز لنا اغترابه، وبخاصة بعدما عرضنا لحياته –وما عاناه فيها من فقر على الرغم من أدبه، وبلاغته وبيانه–، كل هذا كان له انعكاس على نفس الشاعر، كما يبرز في هذين البيتين الأثر الانفعالي القائم في نفس الشاعر المُتسِم بالاستقرار والثبات، فيعبّر عن فكره وفق معتقده بالجملة الاسمية التي توحي بالثبات والاستقرار.

كما يعمد الشاعر إلى الجملة الفعلية التي فعلها فعل مضارع؛ لإفادة التجديد والاستمرار، ولاستحضار صورة المجتمع في ذهن القارئ، وما يعانيه فيه الشاعر من اغتراب، ومنه –أيضًا– قوله:(٢)

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٣.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٩.

{الوافر}

يروقك من بني الدنيا جسومٌ وتَقْبُحُ حين تَقْتُلُهَا اختبارا
وتحسبُ أن وُدَّهُم صحيحٌ ونارُ البُغْض تستعرُ استعارا

بناء على البيتين السابقين يكاد يجزم الباحث أنّ اغتراب (ابن أيدمر) ارتبط ارتباطًا مباشرًا بنشأته، وحالته الاجتماعية، وما فرضه عصره عليه من اغتراب، وتناقض؛ لذلك غدونا نلتمس أثر التمرد على المجتمع، وتبدو النفس المغتربة والتي تعاني ألم الاغتراب في قوله:(ونار البغض تستعر استعارا)، وتعبير الشاعر بمصادر الأفعال: (اختبارا، ود، البغض، استعارا) تُبرز لنا معاناة الشاعر من خلال المبالغة، والتأكيد، والعموم، وهذا العموم عبّر عنه –أيضًا– في قوله: (بني الدنيا)، فلم يقل بني قومي ونحوه... بل قصد التعميم؛ ليبرز اغترابه عن الدنيا.

ويُبرز لنا الشاعر أنّ اغترابه عن مجتمعه نابع من تجاربه مع أبناء هذا المجتمع، فيقول:[1]

{الطويل}

لعمري لقد جرّبتُ دهري وأهْلَهُ فما زادني إلا النّفارَ التجاربُ
إذا المرء أَثْرى لم يزل ذا محاسن وإن هو أَكدى شوّهته المعايبُ

فالشاعر –هنا– يُقْسِم أنّ تجربته مع أهل زمانه، قد جعلته يهجرهم ويسلوهم، ويعبّر الشاعر بالألفاظ التي تُبرز شدة هذا الاغتراب فنجد كلمة (نفار)، وتعني (السلو) من قبل المحبوب؛ إذ يعني سلو المجتمع له، واستعانة الشاعر بأسلوب الاستثناء (فما زادني إلا النّفارَ) للحصر والتخصيص؛ ليؤكد المعنى، كما يؤكد أسلوب الشرط في البيت الثاني (إذا المرء أَثْرى) فكرة الشاعر، ونظرته إلى

(1) شعر محمد بن أيدمر، جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩١.

مجتمعه؛ فصاحب المال موقر في مجتمعه، أما الفقير فغريب فيه، يعاني النبذ من أبنائه، وفي تعبير الشاعر بكلمة (شوهته) إيحاء بتعمد التقبيح.

وأحيانًا يجمع الشاعر (ابن أيدمر) بين اغترابين: اغترابه في مجتمعه لفقره، واغتراب الأصدقاء ونأيهم عنه، فيقول مخاطبًا أحد أصدقائه:[١]

{الكامل}

مـالي ظميـتُ ويحـرُ جـودِكَ مُتْـرَعُ ... وعـــلامَ أطـــوِي والقـــرى مبـــذولُ

وأحـومُ حـول الـوِرْدِ أطلـبُ خَلْـوَةً ... حاشـــاك يخلـــو رَبْعُـــكَ المـــأهول

فـي كـل عـامٍ لـي ببابِـكَ مَنْهَـلٌ ... عَـــذْبٌ وأنـــتَ القصْـــدُ والمـــأمول

والعـــامُ جَـــدْبٌ والعطـــاءُ مُيَسَّـــرٌ ... والإذنُ فـــي إطلاقِـــهِ مســـؤول

يشكو الشاعر في الأبيات السابقة صديقًا له يسمى –علاء الدين عطا ابن ملك بن محمد الجويني– حيث كان ينعم عليه، وفي عام انشغل عنه، فشكا الشاعر فقره، ومدح صديقه، معبرًا عن اغترابه، والأبيات التي بين أيدينا تبدو فيها تجربة الشاعر صادقة فنيًّا، وواقعيًّا؛ إذ حشد فيها الألفاظ والمعاني التي تُعبر عن حاله، واغترابه عن الأصدقاء، وبدا لنا من الأبيات السابقة أنّ شدة الاغتراب في نفس الشاعر لفقره، جعلته يُقدم على المدح؛ ليتخذ من خصاصته سببًا للمديح .

كما يُبرز الشاعر ألم الخيانة، وبخاصة عندما تكون من الأقربين، والأصدقاء فيقول:[٢]

---

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٦.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٣.

{الخفيف}

يـــا صـــديقي وصـــاحبي ونســـيبي ... لِـــمْ تمنّيْـــتَ لـــي الـــرّدى بالمغيـــبِ
خننتَنـــي إذ تبـــدلتَ بـــي وضـــيّعت ... مثلـــي وتلقينـــي بوجـــهٍ قطـــوبِ
مـــا ظننـــتُ الصـــديق يفعـــل هـــذا ... بمحـــــبٍ صـــــديقَه كالحبيـــــب
كنـــت أَلْحَـــى الوشـــاةَ وأســـتبعد ... هـــذا وكيـــف لـــي بالمريـــب
فبعينـــي رأيـــت مـــا كنـــت منـــه ... فـــي شـــكوك التصـــديق والتكـــذيب
لا وعـــزِّ الوفـــاءِ ولا غَرَّنِـــي بَعْـــ ... ـــدَكَ وُدٌ مـــن صـــاحبٍ أو نســـيب

بنى الشاعر مقطوعته السابقة على خيانة من سماه (صديقي، وصاحبي، ونسيبي)، فجعل مقدمة قصيدته تنضح بالاغتراب، وتعلو فيها آهات الشكوى، ويمثّل الاغتراب لدى الشاعر في الأبيات السابقة حالة من العجز والاستسلام، والاكتفاء بالشكوى، فتمتلئ نفسه ألمًا وحسرةً؛ فيعزم ألا يتخذ بعد ذلك ودًّا لصاحب أو نسيب، وهكذا يختم الشاعر مقطوعته بنفس المغترب التي استهل بها مقطوعته؛ لتُصبح القصيدة دائرة مغلقة حول محور واحد، وهو الاغتراب الاجتماعي، والبيتان (الثاني والثالث) من المقطوعة السابقة يبدو فيهما اضطراب في الوزن يعبّران عن صدمة الشاعر واضطرابه للفاجعة التي حلّت به.

هكذا؛ بدا لنا أنّ انفصال الشاعر عن مجتمعه دفعه إلى نفث همومه واغترابه عبر وصف حال الأقرباء والأصدقاء، وكشف اللثام عن تلك الأبعاد الإنسانية؛ إذ إنّ من أبرز مهام الفن نقل التجربة الفردية والاجتماعية إلى الآخرين.[1]

(١) راجع: الاغتراب اصطلاحًا ومفهومًا وواقعًا: قيس النوري (دكتور)، مجلة عالم الفكر، مج(١٠) العدد(١)، صـ٢٥، الكويت ١٩٧٩م.

وبعد عرّضنا لنماذج الاغتراب الاجتماعي في شعر (ابن أيدمر) يمكننا أن نكشف عن أبرز مظاهر هذا الاغتراب؛ فنراها في العُزلة، والشكوى، والعجز، والفقر، وفقدان معنى الحياة، وتفكك المعايير، وفقدان الإنسان لذاته، والتمرُد الاجتماعي.

٣-٢ الاغتراب العاطفي

القارئ لشعر (ابن أيدمر) يجد أنّ غزله كان غزلًا عفيفًا، ومعلوم أنّ الغزل العفيف هو: "حب خالص من شوائب الدنس والرجس، وهو حب طاهر شريف، ولا يعرف مُخزيات المآثم، ولا مُنديات الأهواء"[١]، وترجع بواعث الاغتراب العاطفي إلى البُعد والانفصال عن المحبوب؛ حيث يبرز الاغتراب؛ نتيجة لتجربة الحب المقرون باللوعة والفشل والحرمان، وما دام غزل (ابن أيدمر) غزلًا عفيفًا فهو "أحاسيس مجردة في الحب تُعبّر عن حالات شعورية متقاربة من الشوق والوجدان، والحرمان، والذكريات، والأمنيات"[٢] يعبّر عنها الشاعر قائلا:[٣]

{السريع}

وضـــاع عمـــري بـــالمُنَى والهَـــوَى ومـــا حظـــي بـــالحظ قلبـــي الشـــقي

ففي هذا البيت تشيع حرارة العاطفة التي تصوّر خلجات النفس، ولوعة الفراق، وآلام الاغتراب، فضاع عمره، وشقا قلبه.

(١) العشاق الثلاثة: زكي مبارك، صـ١١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ت).

(٢) في الشعر الإسلامي والأموي: عبدالقادر القط (دكتور)، صـ ١٣٣، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩م.

(٣) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٥.

والاغتراب العاطفي هو أقسى أنواع الاغتراب، وأشدها بأسًا، ولقد عَبّرَ عنه الشعراء منذ أقدم العصور الأدبية، عندما راحوا يبكون الأطلال، ويخاطبون الربع؛ وها هو (ابن أيدمر) يسلك مسلكهم قائلًا:(١)

{الخفيف}

ديـــارٌ مـــا مَـــرَرْتُ بهـــا وإلا شـــجاني أهْلُهـــا وبكيـــتُ فيهـــا

تبرز مظاهر الاغتراب في البيت السابق في شجو الشاعر، وبكائه، فاغتراب الشاعر يكمن في ذكرى محبوبته، وبُعده عنها، فالاغتراب هنا اغتراب عاطفيّ.

ويشعر الشاعر باغترابه ووحدته مع تَقدُّم الأيام؛ فيثير هذا الاغتراب العاطفي في نفس الشاعر الأوجاع التي يعلو أنينها؛ فيزداد شوقه للحبيب الغائب، ويُبدع الشاعر حوارًا متوهمًا يواسي به نفسه محاولًا إطفاء نيران شوقها، فيقول:(٢)

{الطويل}

ألا هـــل لأيـــامٍ تقضّـــت حميـــدةً رجـــوعٌ فلـــي دمـــعٌ علـــيهن ســـاكبُ

ومـن لـي لأيـام الحِمَـى سُقِـيَ الحِمَـى ومـــن أيـــن ســـكانُه والحبايـــب

وقـالوا يعـودُ المـاءُ فـي النهـرِ وصبْـرُهُ عفـتْ مـن آثـارٌ وجَفَّـتْ جَوَانِـبُ

فقلـت لهـم أيـن الزمـان وصـبْرُهُ لعُمـرٍ أراه مقـبلا وهـو ذاهـبُ

يغلب على النص السابق تزاحم الأصوات المهموسة والجهرية، ولعل السبب في هذا التزاحم يرجع إلى الحالة النفسية المضطربة لدى الشاعر، فيبرز أثر التنوع الصوتي الذي يذوب في هذه المواقف الوجدانية المتشابكة، فتشكّل تلك الأصوات المجهورة والمهموسة الصحيحة ... إلى نبضات قلب الشاعر المتموجة، وزفراته

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣١٦.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٠٩.

المحرقة، كما تستحيل تلك المقاطع الطويلة والقصيرة ... إلى زوايا عميقة في وجدان الشاعر تتجمع فيها كل أصوات الماضي، وهموم الحاضر.[١]

كما تبدو في المقطوعة السابقة مظاهر الاغتراب العاطفية على الشاعر؛ إذ تدور المقطوعة حول محور موضوعي واحد؛ وهو حديث الشاعر مع نفسه بين قالوا، وقلت؛ فنجد نفس الشاعر النديم الوحيد الذي يسمعه عندما يشتد به الألم. ومن ذلك قوله:[٢]

{الطويل}

يقولـون لا تحـزنْ وقـد أحـرق النـوي فـؤادي ولكـن هـل يُفيـد التحـرّقُ
إذا كـان حـزنُ المـرء لـيس بنـافع علـى حالـةٍ فالصـبرُ أولـى وأوْفَـقُ

أمام هذا الاغتراب العاطفي الذي أحرق فؤاد (ابن أيدمر)، لا يجد الشاعر سبيلًا إلا الصبر (فالصبر أولى، وأوفق)، ويؤكد الشاعر على هذا السبيل، فيفوّض أمرَه إلى ربه؛ إذ لا يرى منصفًا له في حبه، فيقول:[٣]

{الطويل}

إذا شـكوت الحـب لـم أرَ مُسْـعِدا فأولى من الشكوى سكوتي مع الصبر

في البيت السابق وبناء على الاستدلال المنطقي يخرج الشاعر بنتيجة هي: أنَّ الأولى له السكوت مع الصبر، وهو ما يمكن أن نُطلِق عليه الاستقرار العاطفي،

(١) راجع: نظرية اللغة والجمال في الشعر العربي: تامر سلوم، صـ ٣٩، ط١، دار الحوار، سوريا ١٩٨٣م.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٤.

(٣) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠١.

والرضا بالاغتراب، ويكرر (ابن أيدمر) شكواه بالفعل تارة، وبالمصدر تارة أخرى (شكوت، الشكوى)؛ ليبرز لنا مدى معاناته، وشعوره بالاغتراب العاطفي.

وكثيرًا ما يتولّد الاغتراب العاطفي؛ نتيجة لتقدُّم العمر، واشتعال الرأس شيبًا، مع الحب الضائع، واللوعة والحرمان؛ زد على ذلك التكوين النفسي والاجتماعي، والتجارب الذاتية للشاعر، فتكون مأساة المُحب أشد، واغترابه أوقع وكما قالوا" فقد الأحبة غربة"(١)، وعبّر (ابن أيدمر) عن ذلك في قوله:(٢)

{السريع}

قد شابَ مُذْ فارقْتُكُم مَفْرِقي ... وابْيَضّ فوْدي فمتى نلتقي

مضى زماني بالمنى والرجا ... وما حظي بالوصل قلبي الشقي

فليتني إذ لم أكن دانيًا ... من قربك المأمول لم أُخْلَقِ

أكثرُ عمري قد مضى بالجفا ... فاسمحْ بِوَصْلٍ منك فيما بقى

والله لو أعطيتُ مُلْكَ الورى ... من مغربِ الشمسِ إلى المشرقِ

بساعةٍ منك لما اخترته ... فارحمْ وصِلْ واستَوْصِ بي وارفُقِ

رسم لنا الشاعر في المقطوعة السابقة لوحة فنية أبرزت صورة الشوق واللوعة، حيث عبّر فيها عن اغترابه العاطفي، وإحساسه بتقدُّم العمر منذ أن فارق هذا الحبيب، وكانت طريقة الشاعر في التعبير عن هذه المشاعر تنم عن صدورها من قلب حُرق بنار الحب فخرجت منه؛ لتقع في قلب السامع مباشرة؛ فمكونات الاغتراب العاطفي تبدو جلية؛ إذ إنّ الشاعر يتألم لغربته وانفصاله عن محبوبته،

(١) حلية الأولياء: أحمد بن عبدالله أبو نعيم الأصفهاني: ٣/ ١٣٤، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٠م.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٤.

فقد مرّت الأيام وشاب مفرقه، ولم ينل الوصل من محبوبته، ويعبّر الشاعر بـ(ليت) التي تُفيد التمني، وهو طلب الحصول على البغية التي لا يُرجى تحقيقها؛ وهي توحي لنا بالتأزم العاطفي الذي يعاني منه الشاعر، ثم يُبرز الشاعر أمله في الوصل ولو بساعة، ويختتم الشاعر مقطوعته بجمل إنشائية متعددة (فارحم، وصل، واستوص، وارفق)، أسلوبها أسلوب أمر، والغرض منه الترحم، والتذلل لهذا المحب لعله يرضى ويصفو.

ونلتمس صدى الحزن، والأسى في نفس (ابن أيدمر) حين غدا الاغتراب يقلق نفسه، ويشعر بدنو الأجل دون وصل هذا المحبوب، فيقول:[١]

{الطويل}

صَحَوْتُ ولم أسْلُ الحبيبَ وإنّما أودّع أحبابي وداعَ المُفارِقِ

وأيُّ بقاءٍ يُرْتجى أو مَسَرّة ينالُ الفتى من بعد شيبِ المفارقِ

ويعبّر الشاعر عن اغترابه العاطفي مشبّهًا محبوبته بالبدر، فيقول:[٢]

{الطويل}

كالبدرِ يحسبُها المحبُّ قريبةً ومنالُها في البُعد مثل منالِهِ

يرسم الشاعر في البيت السابق لوحة فنية تُبرز حالة الاغتراب العاطفي، والبُعد عن المحبوبة، فهي كالبدر يحسبُها قريبة، وهي هكذا – في قلبه وذهنه– إلا أنّها في حقيقة الأمر بعيدة المنال، فالشاعر –هنا– تتملكه الحيرة عندما استعصت

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٤، ٣٠٥.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٩.

عليه السُبل، وقعدت به العزيمة عن السلو؛ فيكون دائب الفكر في محبوبته يراها بقلبه، ساكنة في ضميره يسأل عنها كل يوم، منتظرًا البشارة برؤيتها ، فيقول:[١]

{ الوافر }

أراك وإن نأيْتَ بعين قلبي كأنّك حاضرٌ وَسْط الضميرِ
وأسألُ عن إيابك كلَّ يومٍ ومَنْ لي أن أُبَشَّرَ بالبشيرِ

في البيتين السابقين يُبرز لنا الشاعر شدة شوقه، وعمق حسه الاغترابي؛ لبعده عن المحبوبة؛ فهي حاضرة في قلبه يتمنى عودتها ويصوّرها في صورة البشارة (أبشر، بالبشير).

وبناء على النماذج السابقة التي تعرّضنا فيها للاغتراب العاطفي في شعر (ابن أيدمر) يمكننا أن نكشف عن أبرز مظاهر هذا الاغتراب؛ فنراها في الشوق، والشكوى، والوجدان، والحرمان، والذكريات، والأمنيات، والأسى، والحيرة، والفكر، والترقب، والانتظار، وفقدان الشاعر لذاته.

٣-٣ الاغتراب الوجودي

يُعد الاغتراب الوجودي؛ نتيجة لغيره من أنواع الاغتراب الأخرى؛ كالاغتراب الاجتماعي، والاغتراب العاطفي، والاغتراب المكاني... إلا أنّ الاغتراب الوجودي هو اغتراب فلسفي تعلو فيه النبرة التشاؤمية؛ إذ ينفصل المغترب فيه عن الوجود إلى الغيبيات: كالإيمان بالله، والموت، والقضاء، والرزق؛ لذا يُعد الإيمان بالله –عز وجل– هو أبين أنواع الاغتراب الوجودي، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠١.

"كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ"[١]، وتتعدد مظاهر هذا اللون من الاغتراب، فمنها: القلق، والخوف، والحديث عن الموت، والرزق....، ويربط أفلاطون بين حياة الإنسان وغربته، وأنَّ الإخلاص يكمن في الموت، فيقول "الجسد مقبرة الروح، والإخلاص يكون في الموت وحده، فأن تكون ذاتًا يعني أن تكون غريبًا"[٢]، ويبرز هذا اللون من ألوان الاغتراب لدى الزّهاد بخاصة، ومن سلك مسلكهم، كما أنّ هذا الاغتراب الوجودي يسيطر –إلى حد كبير– على نتاج (ابن أيدمر) الشعري ، إذ يبرز في عدة مظاهر، منها: إيمان الشاعر بالله –عز وجل– فيقول:[٣]

{الطويل}

شهدتُ بأنَّ الله لا شيءَ غيرُهُ ... وأنّ رسول الله حقًّا محمدُ

عليه سلامُ في كلّ شارقٍ ... وكل صباحٍ للورى يتجدّدُ

(١) "حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو المُنْذِرِ الطُّفَاوِيُّ عَنْ سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ قَالَ حَدَّثَنِي مُجَاهِدٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ" الجامع الصحيح –الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه– لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ) باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ/ كتاب الرقاق، مج ٤، ٨ / ٨٩ الطبعة الأولى، دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ.

(٢) الاغتراب : شاخت صـ ٢٢.

(٣) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٤.

فالإيمان بالله -عز وجل-، وأنّه لا شيء غيره، وبنبيه محمد -صلى الله عليه وسلّم-هو اعتراف صريح من الشاعر باغترابه في هذا الوجود، ويطفو هذا الاغتراب الوجودي على السطح عندما يشعر الإنسان بغربته في هذا الكون فلا يثق إلا بالله -عز وجل-، فهو مَنْ يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويُعبّر الشاعر عن هذا الاغتراب الوجودي وتسليم الأمر إلى الله قائلًا:[١]

{ الخفيف }

ثِقْ بِمَنْ يَغْفرُ الذنوبَ جميعًا ويجيبُ الدعاء في كلّ كَرْبِ

ومن مظاهر الاغتراب الوجودي في شعر (ابن أيدمر) كلامه المتأزم عن الدهر، فيقول:[٢]

{الطويل}

عَرَفْتُ سجايا الدهرِ لمّا صحبتُه ومن يصحبِ الأيامَ يَقْنِ التجاربا

الشاعر يُعبّر عن خبرته ودرايته بحال الدهر، وتعبير الشاعر بكلمة (الدهر) يُوحي بطول هذه الأيام وقسوتها، كما تُعطي كلمة (الأيام) في الشطرة الثانية تأكيدًا معنويًّا لكلمة (الدهر)، والفعل (يصحب) يُوحي بالملازمة بين الشاعر، ودهره، وفي قصيدة ثانية يفصّل (ابن أيدمر)، ويُوضح ما أجمله في البيت السابق، فيقول:[٣]

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٢.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٢.

(٣) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٠.

{الطويل}

كذا الناسُ إما واسعُ الرزق مُنْجِحٌ ... وإما شَقِيٌّ ضيّق الرزق خايب
وما الرزق من عجزٍ ولا بجلادةٍ ... ولكن أحاظٍ قُسِّمتْ ومواهِبُ
عجبتُ لجودٍ لا يواتيهِ بَسْطَةٌ ... ويُخلُ امرئٍ فاضتْ عليه المكاسبُ
وما زال هذا الدهرُ يدي عجائبا ... لأهل النُّهى والدهرُ فيه العجائبُ

يَبْرُزُ في الأبيات السابقة مظهران من مظاهر الاغتراب الوجودي عند الشاعر، أولهما: الرزق، وهو من أكثر الأمور التي شغلت الناس، وبخاصة المفكرون والأدباء منهم على مرِّ العصور، والرِّزق هو: ما قُسِم للعبدِ من أصناف احتياجاته –ما به انتفع–، ولا يُشترط فيه أن يكون حلالاً، والرِّزق يشمل الصِّحة والأبناء، والزوج....، وثاني مظاهر الاغتراب الوجودي في الأبيات السابقة: الدهر وعجائبه، وهو الزمان ومرور الأيام، وقد ورد النهي عن سب الدهر في السنة العطرة، ويعبّر الشاعر في الأبيات السابقة عن اغترابه الوجودي فالرزق مقسوم، والدهر ما يحمل إلا عجائب الأمور، وكلمة (خايب) في البيت الأول، وتسهيلها تُوحي لنا بنظرة الشاعر إلى الحياة الدنيا، وأنّه لا قيمة لها، وتسهيل الهمزة هو تسهيل، وتهوين من أمر هذه الدنيا.

كما يبرز في شعر (ابن أيدمر) تسليمه بقضاء الله، وهو من الأمور الغيبية؛ فيقول:[1]

{الكامل}

سيكون ما هو كائنٌ في وقته ... قُضي القضاءُ وجَفَّت الأقلامُ
وإذا القضاءُ أتى بأمرٍ لازم ... أعشى العيون وطاشت الأحلامُ

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣١١.

ففي البيتين السابقين يُظهر الشاعر تسليمًا كاملًا بقضاء الله–عز وجل–؛ ولذا نجده يُعبّر عن ذلك الإيمان بأبيات رقيقة عذبة صادرة عن نفس يعتصرها الاغتراب والألم، ويبدو التسليم بقضاء الله بارزًا؛ إذ كرر (سيكون ما هو كائن)، (قضى والقضاء، وإذا القضاء)، والتأكيد المعنوي في (قضي القضاء، وجفت الأقلام)، و(أعشى العيون، وطاشت الأحلام) فالمعنى واحد وهو لزوم نزول القضاء، ولا فرار من قضاء الله؛ فيزهد الشاعر في هذه الدنيا وما فيها؛ إذ ليس له من الأمر شيء، فيقول:[١]

{الوافر}

ومَنْ عرفَ الزمانَ أطاعَ قَسْرا ... أَوَامِرَهُ وتابع ما قَضَاهُ

فَطِبْ نفسًا بما لابُدَّ منه ... ودافعْ ما اسْتَطَعتَ بما سِوَاهُ

النسيج اللغوي في البيت الأول يوحي بالتأزم من الزمان، وقهره، كما أنّ ألفاظ (الزمان، وقسرا، وأوامر، وتابع، وقَضَاه) كلها توحي بالقهر، والاغتراب في هذا الوجود.

وفي لوحة فنية بديعة يرسم الشاعر صورة نابضة يصوّر فيها حال البشر في هذه الدنيا، ويذكّرهم بأنّهم غرباء فيها؛ ويحثهم على استثمار الحياة فيما ينفع، ويذكرهم بالموت وما بعده من جنة أو نار، فيقول:[٢]

{الطويل}

ألـيس من الخُسرانِ وقتٌ مضيَّعٌ ... يفوتُ بلا نفعٍ ويُحْسَبُ من عُمْرِي

ونحنُ بنو الدنيا كركّابِ قاربٍ ... تُظنُّ جلوسًا والزمانُ بنا يَسْرِي

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٨٩.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٠.

فمِـنْ غافـلٍ قـد أَسْـلَمَتْهُ يـدُ الـردى ومنتظـرٍ قـدماهُ فـي لجَـجِ البحـرِ
لعمـرك مـا يـدري الفتـى مُسْـتَقَرَّهُ ولا أنـت تـدري أيـن نمضـي ولا أدري
ومـا ثَـمّ إلا النـارُ وُقِّيـتَ شَـرَّها وجنـاتُ عـدنٍ تحتهـا أنهـرٌ تجـري

صوّر الشاعر في المقطوعة السابقة عدة مظاهر للاغتراب الوجودي، من خلال عرضه لصورة حيّة، شبّه فيها البشر في هذه الحياة بركّاب قارب يظنون أنّه واقف بهم، بينما هو ماضٍ كالزمان من حولهم، وهم في غفلة معرضون، فوجدنا (الردى، والجنة، والنار)، وكلها أمور غيبية، توحي باغتراب الشاعر الوجودي.

وكثيرًا ما يعرض الشاعر اغترابه الوجودي من خلال زهده في هذه الدنيا، وأنّها متاع الغرور، وأن العاقبة إما إلى جنة الخلد، وإما إلى نار حامية، فيقول:[١]

{البسيط}

هـل هـذه ادارُ إلا مثـلُ مـا وصِـفَتْ هشـيمُ نبـتٍ ذَراهُ عاصـفٌ عصـفا

قد يضيف الشاعر الدهر إلى نفسه؛ ليبرز قسوة هذا الدهر عليه، فيقول:[٢]

{اطويل}

لعمـري لقـد جرَّبـتُ دهـري وأهلـهُ فمـا زادنـي إلا النّفـارَ التجـاربُ

فالشاعر مغترب في هذا الوجود نافر منه؛ لعلمه به.

ولعل أكثر مظاهر الاغتراب الوجودي في شعر (ابن أيدمر) هو حديثه عن الموت، فالشاعر يترقبه، ويتوقع قربه فيقول:[٣]

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٣.
(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩١.
(٣) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٩.

{الكامل}

وانهضْ إلى الخيراتِ وابتدر التقى إنّ الزمـــان بأهلـــه غَـــدَّارُ

هذا المشيبُ وبعده الموتُ الذي عقبـــاه إمـــا جَنّـــةٌ أو نـــار

يستعين الشاعر في الأبيات السابقة بالجمل الانشائية، ذات الأسلوب الأمري؛ ليعبّر عن اغترابه في هذا الوجود، والأفعال (انهض، وابتدر)، توحي لنا باغتراب الشاعر؛ إذ إنّه في مكان رحيل، ويأتي النسيج اللغوي في الشطرة الثانية من البيت الأول (إنّ الزمان بأهله غَدَّارُ) ؛ ليبرز مظهرًا من مظاهر هذا الاغتراب، وهو غدر الزمان، والإضافة في (بأهله) توحي بقسوة هذا الزمان وغدره، والتعبير بصيغة المبالغة (غدّار) توحي بتهويل وتفخيم وشدة هذا الغدر، وفي الشطرة الأولى من البيت الثاني (هذا المشيبُ وبعده الموتُ) يُبرز الشاعر أن الشيب يؤم الموت، والموت يتلوه إما جنة، وإما نار، فأي اغتراب وجودي يعبّر عنه الشاعر؛ فهو كدعوى الشيء ببينة.

ويُبرز الشاعر اغترابه في هذا الوجود وسرعة انفصاله عنه إذ يقول:[1]

{الخفيف}

ربّ يـومٍ مـا بعـدَه مـن مسـاء ومسـاءٍ مـا بعـدَه مـن صـباح

يرسم البيت –السابق– صورة المتأزم من الوجود، العالم بفنائه، المترقب سرعة هذا الزوال، والخطاب –هنا– خطاب عام، وهكذا تتنوع مظاهر الاغتراب الوجودي لدى الشاعر بين العام والخاص.

وبَعْدُ؛ يمكننا –الآن–وبعد تناولنا للاغتراب الوجودي في شعر (ابن أيدمر) أن نذكر أبرز مظاهر هذا الاغتراب في شعره، وتتمثّل في: إيمان الشاعر بالله، وبنبيه

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٢٩٤.

محمدٍ –صلى الله عليه وسلّم–، والتأزم من الدهر وعجائبه، والحديث عن الرزق، والموت، والقلق، والخوف، والجنة، والنار.

٣-٤ الاغتراب النفسي

عند الحديث عن الاغتراب النفسي في شعر (ابن أيدمر) لا نستطيع أن نكون بمعزلٍ عن أنواع الاغتراب الأخرى التي وجدناها في شعره كالاغتراب الاجتماعي، والاغتراب العاطفي، والاغتراب الوجودي...؛ ولعل هذا ما دفع إلى القول إنّه "من الصعب تخصيص نوع مستقل نُطلق عليه الاغتراب النفسي، وذلك لتداخل الجانب النفسي للاغتراب وارتباطه بجميع أبعاد الاغتراب الأخرى..."[(١)]؛ إذ إنّ الاغتراب النفسي لا ينفصل عن الاغتراب الاجتماعي، والاغتراب العاطفي، فالاغتراب النفسي يبدأ من الذات الإنسانية، لكن مرجعه الحقيقي هو المجتمع بكل قضاياه؛ لذلك قيل الاغتراب النفسي سياق يتعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية، وعقلية، وما ينتابه من شعور بالاغتراب عن العالم، وفتور أو جفاء في علاقته بالآخرين، فانفصال الإنسان عن ذاته وواقعه، وشعوره بالاختلاف عن الآخرين عبْر افتقاده الإحساس بنوع من العلاقة بينهما، ومن ثم انعدام الشعور بالقدرة على تغيير الواقع؛ فيؤدي ذلك إلى إيجاد حالة من اغتراب الذات عن الواقع الخارجي.

وعلى كل فيمكننا أن نُحدد مظاهر الاغتراب النفسي عند (ابن أيدمر) بناء على عناصر محددة اتفق عليها أغلب علماء النفس، والدراسات الأدبية في تناولهم لمظاهر الاغتراب منها: الانفراد، والعُزلة، وذم أهل العصر، وذم الزمان والدنيا، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة، وعدم الشعور

(١) دراسات في سيكولوجية الاغتراب: عبد اللطيف خليفة، صـ ٨٠، ط١، دار غريب، القاهرة ٢٠٠٣م.

بالمغزى الحقيقي للحياة، والشعور بالألم، والحزن، واليأس، والعجز، والقلق، والاكتئاب، والإحساس باللاواقعية، والسأم، والسخط، والذي قد يتحوّل إلى استسلام ورضا بالقضاء... [١].

من أبرز مظاهر الاغتراب النفسي في شعر (ابن أيدمر) ذمه لأبناء زمانه، فلقد عاش الشاعر في عصر تبدّلت فيه القيم؛ وذلك بفعل التغير الحضاري، واتصال العرب بغيرهم من الأجناس الأجنبية، وفي خضم هذا التغير الحضاري كان (ابن أيدمر) مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالقيم والأخلاق، وإدراكه أنّ هذه الدنيا دار ابتلاء؛ فيعبّر الشاعر عن تأزمه من أهل عصره قائلًا:[٢]

{ الوافر}

وعشْ فَرْدًا وطِبْ بالفقرِ نفسًا ولا تحفِلْ بأبناءِ الزمان

نجد الشاعر في البيت السابق يستعين بالجمل الإنشائية التي يتنّوع فيها الأسلوب بين الأمر والنهي؛ ليعبّر عن اغترابه النفسي فيدعو إلى اعتزال الناس، والرضا بالفقر، وعدم العبء بأبناء الزمان، فالوحدة التي عبّر عنها بقوله: (عش

(١) راجع: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري دراسة اجتماعية نفسية: أحمد علي إبراهيم الفلاحي (دكتور)، صـ ١٢١، ١٢٢، ط١، دار غيداء للنشر والتوزيع عمان الأردن ١٤٣٤هـ /٢٠١٣م، وراجع –أيضًا–: الاغتراب سيرة ومصطلح: محمود رجب (دكتور) صـ ٣٥، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨م. وراجع : الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني: مريم جبر فريحات، مج(٢٦)، العدد(٣–٤) صـ ٣٠٦، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، سوريا٢٠١٠م، والاغتراب وعلاقته بمفهوم الذات: آمال محمد بشير، صـ ٣١ (رسالة دكتوراه)، كلية التربية، جامعة عين شمس ١٩٨٩م.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣١٥.

فردًا) تُعد من أبرز مظاهر الاغتراب النفسي؛ إذ إنّ "الوحدة هي الحركة الأولى في جدل الاغتراب"[١] كما أنّ الفقر يؤدي دورًا مهمًّا في إبراز الاغتراب النفسي لدى الشاعر.

ويعبّر الشاعر عن أزمته النفسية، فيمط اللثام عن حقيقة أبناء عصره الذين يزعمون أنّهم رجال، وما هم برجالٍ-هم- فارغون؛ رجال أقوال لا رجال أفعال، يقول:[٢]

{ الكامل}

ما كل من طلب المعالي نالها كلا ولا كلّ الرجالِ رجالُ

ألفٌ يسرك في مقال فارغ لا فِعْلَ فيه وواحدٌ فَعّالُ

ومع التبّدل الحضاري في عصر (ابن أيدمر)، وما تبعه من تغير في القيم والمبادئ، -كما أشرت سابقًا- يتقدّم النذل اللئيم ويصبح ذا مكانة عالية، ويتأخر الكريم ويعانده الدهر، فيعبّر الشاعر عن هذه الحالة قائلًا:[٣]

{مجزوء الكامل}

يعاندُ الدهرُ الكريمَ ويرفعُ النَّذلَ اللئيمَا

وتعبير الشاعر بالأفعال المضارعة (يعاند، ويرفع)؛ لإفادة التجدد واستمرار معاندة الدهر للكريم، ورفعه للنذل اللئيم، كما يُسهم في استحضار الصورة في ذهن السامع، والتعبير بكلمة (الدهر) توحي بقسوة الأيام، وتعاظم آلامها على نفس

(١) الإنسان والاغتراب: مجاهد عبدالمنعم مجاهد (دكتور)، صـ٢٧، ط١، سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق١٩٨٥م.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٨.

(٣) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣١٢.

الشاعر، والتي تضخمت وصارت دهرًا، وهنا يبرز مظهرًا آخر من مظاهر الاغتراب النفسي لدى الشاعر، وهو ذم الزمان، وكشف حقيقة الدهر، واستعانة الشاعر بالطباق بين (الكريم، واللئيم)؛ لتقوية المعنى وتوضيحه في التعبير عن اغترابه.

ويُظْهِر (ابن أيدمر) بوضوح جلي إحساسه باغترابه النفسي في هذه الدنيا، فيقول:[١]

{الطويل}

ثــراءٌ ولا جــودٌ وكبــرٌ ولا عُــلَا وضــرٌّ ولا نفــعٌ وجهــلٌ ولا عــقلُ

فيعبّر في البيت السابق عن حالة من التأزم النفسي، استعان فيها الشاعر بطباقات عدة، كما استخدم الشاعر مصادر الأفعال؛ للمبالغة، والتأكيد، وإبراز قسوة هذه الدنيا.

ومن اللوحات الفنية البديعة التي رسمها الشاعر (ابن أيدمر)، ويُعبّر عَبْرها عن اغترابه النفسي قوله:[٢]

{البسيط}

مالي أرى حادثات الدهر قد جمعتْ عليَّ عَيْبَيْن سوءَ الكيلِ والحشَفا
آلي تروّعُ قد جاءت بمعظمها كم حادثٍ جلّ لما حلّ وانصرف
كأنّي ما حلبتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ ولا وقعتُ عليّ آثارِ مَنْ سَلَفَا
عندي لريب زماني خمسةٌ عجب فلا أخاف إذا ما خاف أو جَنَفَا
حزم وعزم وصبر ثم تجربة وهِمَّةٌ تعشق العلياءَ والشرفا

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٦.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٣.

يشكو الشاعر في الأبيات السابقة الدهر، وما جناه عليه مستعينًا بالمثل العربي " أحشفًا وسوء كيلة"[١]، كما استعان الشاعر بالصور البلاغية، من (مبالغة، وكناية، وجناس، وحسن تقسيم....)، وجاءت ألفاظ الشاعر وتراكيبه معبّرة عن حالته النفسية اليأسة فنجد:(حادثات، وتروّع، وحادث، وجلّ، ووقعت، وآثار، وريب، وأخاف، وخاف، وصبر)، وكلها ألفاظ تُعبّر عن اغتراب الشاعر، وألمه، وحالته النفسية المضطربة، وما لها من دور في إبراز آلام الشاعر النفسية، فالمقطوعة السابقة رسمت لنا صورتين: الأولى–حوادث الدهر، وأثرها على الشاعر، والصورة الأخرى – أزمة الشاعر النفسية النابعة من اغتراب الشاعر الذاتي، والتي عبّر عنها في البيت الأخير، ومن ثَمّ برزت مظاهر عدة للاغتراب النفسي عند الشاعر في المقطوعة السابقة منها: ذم الدهر والدنيا، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة، مع تقدير الشاعر لنفسه.

ثم يتوجّه الشاعر إلى أبناء زمانه، مُسقطًا عليهم اغترابه النفسي، فيُبين سوء أخلاقهم فحاشاه أن يشكو إليهم، فخُلقهم من خُلق دهرهم، إن صفا الدهر صفوا، وإن تكدّر الدهر تكدّروا، فيقول:[٢]

{البسيط}

حاشاي أشكو إلى خلق فَأُشْمِتَهُ في ما الأنام صديق إنْ وفيت وفا

---

(١) "قولهم: أَحشَفًا وسوءَ كيلةٍ: يضرب مثلًا لجمعك على الرجل ضربين من الخُسران، ونوعين من النقصان" جمهرة الأمثال: أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، ضبطه كتب هوامشه: أحمد عبد السلام (دكتور)، صـ١/٨٥، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٣.

خُلْـقُ الصـديق لخُلْـقِ الـدهر مُتَّبِـعٌ إذا صــفا لــك صــافي أجفــك جفــا

ثم يختتم (ابن أيدمر) هذه اللوحة الفنية مُعبرًا عن اغترابه النفسي في هذه الدنيا مقتبسًا من القرآن الكريم، والحديث النبوي، قوله: [١]

{البسيط}

هل هذه الدارُ إلا مثلُ ما وُصِفتْ هشيــمُ نَبْــتٍ ذَرَاه عاصــفٌ عصــفا

أو كالغمــامِ يرجّــى النــاسُ ريِّقَــهُ لمــا تمكّــن أَجْلَــى الغــيمَ وانكشــفا

حَسْـبُ الفتـى ذكـرُه للمـوت موعظـةً إذا أراد اعتبــــارًا حَسْــــبُهُ وكَفَــــى

اقتبس الشاعر الأبيات السابقة من قوله –تعالى–:{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}[٢] كما اقتبس من قول الرسول–صلى الله عليه وسلم– "كفى بالموت واعظًا".[٣]

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٣.

(٢) القرآن الكريم، سورة الكهف، آية ٤٥.

(٣) "قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب من حديث عائشة، وفيه الربيع بن بدر وهو ضعيف، ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد انتهى". تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي وابن السبكي والزبيدي: محمود بن محمد الحداد أبو عبد الله ٥/ ٢١٣٤ دار العاصمة لنشر، الرياض، السعودية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

إنّ حياة الشقاء التي عاشها (ابن أيدمر) قد أثّرت في نفسه تأثيرًا شديدًا جعلته يُسقِط آلامه النفسية على ما حوله، إذ بدت مظاهر هذا الاغتراب النفسي من خلال القصيدة السابقة؛ فشكا دهره، وعاب أبناء عصره، وذم الدنيا وما فيها، واختتم قصيدته بالحديث عن الموت وسكراته.

إنّ من أبرز مظاهر الاغتراب النفسي عند (ابن أيدمر) الفقر، وصراعه النفسي، فمع الإخفاقات المتتالية التي أصابت الشاعر في حياته الواقعية، – وبخاصة من الناحية المالية –تشعّبت حلقات الاغتراب، وتوالت صراخات النفس؛ لترسم واقعًا مأزومًا يدفع النفس إلى الشكوى فيقول:[١]

{ الكامل}

والفقرُ صاحبه ذليلٌ جاهلٌ عَسِرُ الحوايجِ مُتْعَبٌ مُحْتَالُ

صوّر الشاعر في البيت السابق النفس المكلومة التي تعاني الفقر، وإضافة كلمة (صاحب) إلى الضمير العائد على (الفقر) توحي بالملازمة، وما يتبعها من آثار نفسية، تتمثل في: الذل، والمهانة، والجهل، والتعب، والاحتيال، والقلق، وكلها مظاهر للاغتراب النفسي الذي يعانيه الشاعر، فالبيت السابق يُعَدُّ إسقاطًا شديدًا لما يعانيه الشاعر من إحساسٍ باليأس.

ويستعين (ابن أيدمر) على فقره باستعطاف الكرماء علّهم يمنون عليه ببعض المال، وبخاصة إن كان صاحب العطاء صديقًا للشاعر؛ ليكون الاستعطاف ملاذًا يجد فيه راحة نفسية، بعدما عانت النفس اليأس، وضاقت بعزلتها.[٢]

---

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٨.

(٢) راجع: شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٦، وهذا البحث في الحديث عن الاغتراب الاجتماعي(٣-١).

يُشكّل الشيب هاجسًا نفسيًّا يدفع إلى انفعالات وتوترات؛ تولّد أثرًا نفسيًّا عميقًا، فالشيب يؤم الموت، وهو زائر ونذير يبعث الرهبة؛ ومن ثم يؤدى ظهوره إلى واقع نفسيّ يجعل الشاعر يعيش في حالة من حالات الاغتراب النفسي، وتشتد آلام هذا الاغتراب إذا ارتبط بفراق الأحبة، وهذا ما عبّر عنه (ابن أيدمر) في قوله:[١]

{الطويل}

صَحَوْتُ ولم أسْلُ الحبيبَ وإنّما أودّع أحبابي وداعَ المُفارِقِ
وأيُّ بقاءٍ يُرْتجى أو مَسَرّة ينالُ الفتى من بعد شيبِ المفارقِ

ومن مظاهر الاغتراب النفسي التي تناولها (ابن أيدمر) في شعره اليأس، فيقول:[٢]

{الكامل}

رجع اليقينُ من الرجاءِ تظنِّيًا فاليأس أقربُ من عَجاجِ الأمل

يتجلى الاغتراب النفسي على الشاعر في البيت السابق، إذ سيّطر عليه الإحباط؛ نتيجة للإخفاقات المتتالية؛ فرأى أنّ الركون إلى اليأس أولى من حماقة الأمل الكاذب.

وقد يتولّد عن اغتراب النفس حالة من التمرد؛ والتي قد ينتج عنها بعضًا من ألوان العنف، والشدة كما في قول الشاعر:[٣]

{الوافر}

رأيت العزَّ في ضربٍ وطَعْنٍ وتلتصِقُ المذلَّةُ بالجبانِ

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٤، ٣٠٥.
(٢) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣٠٩.
(٣) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣١٥.

البيت السابق دعوى صريحة من الشاعر إلى الاستعانة بالضرب والطعن؛ فهي السبيل الوحيد إلى نيل العز، وتعبير الشاعر بالفعل الماضي في الشطرة الأولى (رأيت)؛ لتأكيد المعنى المراد، والتعبير بالمصادر (العز، ضرب، وطعن) للمبالغة، وتقوية المعنى، وفي الشطرة الثانية من البيت السابق (وتلتصِقُ المذلَّةُ بالجبانِ) يؤكد الشاعر رؤيته بأنّ المذلة مصاحبة للجبن وتوحي باغتراب النفس؛ لما فيها من ألفاظ التمرد (الذل، والجبن)، وتعبير الشاعر بالفعل المضارع (تلتصق)؛ لاستحضار الصورة في الذهن، واستعانة الشاعر بكل هذه المؤكدات يعبّر عن اغتراب النفس وتمردها.

وكما ذكرت-آنفًا-أنّ (ابن أيدمر) من الشعراء الذين غلبت على حياتهم النزعة الدينية، وأنّه تزهّد في آخر حياته، وعكف على كتابه الموسوم (الدر الفريد وبيت القصيد)، فمع اللحظات الإيمانية لدى الشاعر، ولحظات الفتور النفسي تخمد نار الاغتراب النفسي، فتميل النفس إلى الركون إلى الله شاكية باكية طالبة العفو من خالقها قائلة:[1]

{المنسرح}

أستغفرُ الله آخرَ الكلِمِ ... من عثراتِ اللسانِ والقلمِ
وفاحشاتٍ كتبتُها بيدي ... وخُطُواتٍ زلَلْنَ بالقدمِ
ومِنْ زمانٍ أَضَعْتُهُ سَفَهًا ... في تُرَّهاتِ القريضِ والحِكَمِ
وموبقاتٍ ركِبْتُ أخطرها ... إما بقلبي أو هاجرات فمي
أتوبُ مما جنيتُ معتذرا ... عنه بفيض الدموع والندم

(١) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣١٢.

نجد في الأبيات السابقة نفسًا مستغفرة، لجأت إلى ربها، معترفة بذنبها، نادمة على ما فعلت، متوسلة بدمعها إلى الله –عز وجل– راجية غفران ذنوبها، ومن ثم حملت هذه الأبيات اغترابًا نفسيًّا، يكشف عَبْره (ابن أيدمر) طبيعة النفس البشرية، وما في حياتها من ضيق، وعثرات، وفاحشات، وشكوى، وقلق، ولكن لا راحة ولا استقرار للنفس إلا في رضا المولى –عز وجل–.

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)} .[١]

وبناء على ما سبق من نماذج للاغتراب النفسي في شعر (ابن أيدمر) يمكننا الوقوف على أبرز مظاهره، وهي: ذم الشاعر لأبناء عصره، وذمه للزمان ودنياه، وكشف حقيقة الدهر، وشكوى الدهر، والفقر، والحديث عن الموت وسكراته، والاحتيال، والقلق، والاستعطاف، واليأس، والركون إلى الله –سبحانه وتعالى–.

٣-٥ الاغتراب المكاني

على الرغم مما عاناه (ابن أيدمر) من ترحال وانتقال من مكان إلى آخر – كما ذكرتُ في الحديث عن عوامل اغترابه–إلا أنني نادرًا ما أجد الاغتراب المكاني في شعر الشاعر؛ ولعل السبب في ذلك عدم جمع الشاعر لشعره، وكذا عدم اهتمام الرواة بشعر الشاعر؛ مما أدى إلى ضياع أكثر شعره، وعدّه من الشعراء المُقلين.

والاغتراب المكاني يزداد ويتضاعف عند الشعراء؛ إذا ارتبط المكان بالحبيب والشوق إليه، وهذه حالة الشعراء القدامى، وقد سلك مسلكهم ابن (أيدمر) إذ يقول:([٢])

([١]) القرآن الكريم، سورة الشمس، الآيات: ٧، ٨ ، ٩، ١٠على الترتيب.

[٢]) شعر محمد بن أيدمر؛ جمع وتوثيق ودراسة: صـ ٣١٦.

{الوافر}

ديـــارٌ مـــا مَـــرَرْتُ بهـــا وإلا شـــجاني أهْلُهـــا وبكيـــتُ فيهـــا

صوّر الشاعر في البيت السابق اغترابه المكاني، فالمكان الذي يتحدّث عنه الشاعر ضمّنه ذكريات مع مَنْ أحب؛ فكلما مر به حرّك المكان ذكريات الأيام الخالية، والاغتراب المكاني في البيت بدا في مظهري الشجو، والبكاء، وليس ثمة شك أنّ هذا البيت – فيما يرى الباحث–ضمن قصيدة ضاعت فيما ضاع من شعر الشاعر بث خلالها مظاهر عدة من اغترابه المكاني.

وفي بيت آخر يبرز الشاعر مظهرًا آخر من مظاهر الاغتراب المكاني، وهو الشوق إلى المحب فيقول:

{الطويل}

وأنـتم علـى بُعْـد المسـافة حُضَّـرٌ خيـالكُم عنـدي وعنـدكُم قلبـي

عَبّر الشاعر في البيت السابق عن اغترابه المكاني، فالشاعر في مكان خلا من أحبته؛ إلا أن طيف المحب كائن فيه، وقلب الشاعر ترك المكان الذي يقطن فيه؛ ليسكن عند الأحبة؛ فأي اغتراب يعانيه الشاعر جسده في مكان، وقلبه في مكان آخر حيث أحبته، وإضافة الظرف(عند) إلى الضمير (الياء) العائد إلى الشاعر، يوحي لنا بشدة اغتراب الشاعر، ولوعته وشوقه إلى الأحبة.

ومما سبق يمكننا الوقوف على أبرز مظاهر الاغتراب المكاني في شعر (ابن أيدمر)، وهي: الشجو، والبكاء، والشوق إلى الحبيب، والاعتماد على الطيف؛ للتغلّب على اغترابه المكاني.

٤■ بناء على النماذج السابقة التي عرضنا فيها ظاهرة الاغتراب –بأنواعه المختلفة– في شعر (ابن أيدمر المستعصمي) يمكننا أن نشير في إيجاز إلى أهم خصائص هذه الظاهرة عند الشاعر، وذلك على النحو التالي:

٤–١ شكّل الاغتراب ملمحًا عامًّا في شعر (ابن أيدمر المستعصمي)؛ حتى لنكاد نلمح وراء كل قصيدة أو مقطوعة روح الاغتراب، ومَنْ يقف أمام معانيه، وأفكاره يلتمس عمق الهوة بين ذات الشاعر، وبين الآخرين.

٤–٢ كشف البحث عن أبرز العوامل التي أدت إلى اغتراب الشاعر، وتمثلت في: الحقبة التاريخية التي عاش فيها الشاعر، وأصله الطيب الكريم، وما عاناه من فقر، وأسر، وفقد للأحبة (الأبناء، ووالده، والخليفة المستعصم).

٤–٣ تنوّعت ألوان الاغتراب في شعر (ابن أيدمر المستعصمي)؛ فشملت الاغتراب الاجتماعي، والاغتراب العاطفي، والاغتراب الوجودي،

والاغتراب النفسي، والاغتراب المكاني، وكان لكل لون ما يميّزه من مظاهر عن اللون الآخر، -وأحيانًا- تتداخل بعض هذه المظاهر، ويرتبط بعضها والبعض الآخر.

٤-٤ تعرّف البحث إلى مظاهر الاغتراب في شعر الشاعر، وكان من أبرزها: العجز وافتقاد القدرة، وانعدام معايير القيم والأخلاق، والعُزلة الاجتماعية، والانفصال عن النفس، وافتقاده لقيمة وجوده، والتمرد، والرفض لقيم المجتمع، وذم أهل العصر، وذم الزمان والدنيا، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة، وعدم الشعور بالمغزى الحقيقي للحياة، والشعور بالألم، والحزن، واليأس، والقلق، والاكتئاب، والسأم، والسخط، وأحيانًا يتحوّل الاغتراب إلى استسلام ورضا بالقضاء.

٤-٥ تميّز شعر (ابن أيدمر) الذي عَبّر فيه عن اغترابه بصدق التجربة الشعرية، وإننّا لنستشعر هذا الصدق في كل بيت من أبياته، وهذا الصدق الذي منح شعره هذا التأثير؛ إذ راح يتحسس تجربته في كل خاطرة من خواطره حتى يستطيع تصويرها، ونقلها إلى عالم المتلقي فتعكس ما بها من إيحاءات، كما تترجم بلغة بيانية عن مردودها في نفس الشاعر، ولعل صدق العاطفة في شعر الاغتراب لدى الشاعر مرده الاتقاد العاطفي لديه؛ فلقد كان (ابن أيدمر) يشعر بالاغتراب في كل ما حوله.

٤-٦ إنّ لغة الشاعر التي عَبّر بها عن اغترابه في شعره، تتميز في معظمها بجريانها مع الطبع، والبُعد عن التكلف، والتعقيد، والغموض، فألفاظه سهلة تصدر عن نفس شاعرة، ولها رنّة موسيقية آخذة، كما تُوحي لنا

ألفاظه بمعانٍ مشعة تتجاوز فيها مفاهيمها المعجمية إلى إيحاءات أخرى بديعة، وقلّما نجد بيت صعب المفردات، أو غريب اللفظ، وربما تصل سهولة اللغة لدى الشاعر إلى درجة الابتذال، والعامية كتسهيل الهمزة في عدة مواضع لغير علة.

٤-٧ تحققت الوحدة العضوية -إلى حدٍ كبيرٍ- في أكثر شعر(ابن أيدمر) الذي عبّر فيه عن اغترابه، فلا يتقيد بالبناء التقليدي للقصيدة، وإنّما يقتحم غرضه مباشرة؛ لذا جاءت في تلاحم معنوي بحيث ينشأ البيت من سابقه، ويقود إلى لاحقه في ظل وحدات عدة كالوحدة الشعورية، والوحدة الفكرية، والوحدة الزمنية، والوحدة الموضوعية.

٤-٨ شعر (ابن أيدمر) الذي وصل إلينا في أكثره مقطوعات، وأبيات متناثرة، ولا نفتقد بعض القصائد ذات البناء الكلي المترابط، وأكثر أشعاره التي عَبّر فيها عن اغترابه تتوفّر فيها الوحدة العضوية، وذلك يرجع إلى:

أ- العنصر القصصي الذي يتوفر في أكثر أشعاره.

ب-الصدق الوجداني، ودوران شعره في أكثره حول ذاته.

ج-أكثر شعر الشاعر في مقطوعات شعرية قصيرة، وأبيات متناثرة.

د-عدم اهتمامه بالمقدمة الطللية.

٤-٩ بدت الأفكار مترابطة ارتباطًا وثيقًا، ومتسلسلة تسلسلًا منطقيًا، ومرتبة ترتيبًا دقيقًا تُوحي إلى المتلقي بصدق الشاعر، وإحساسه بها، وترابط المعاني في نسيج من الشعور، والفكرة بصورة متقنة ووعي كامل، ولقد أحاط الشاعر بكل ما أراد في تحديد سمات اغترابه،وبدت صبغته

الدينية جليّة بارزة فصاغ معاني دينية، وفوّض أمره إلى ربه، وتأثر بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

٤-١٠ يَكثُر (ابن أيدمر) من التصوير في رسم صورة اغترابه، حيث يرسم لنا صوراً فنية مكتملة الخطوط، والعناصر؛ إذ جاءت أشعاره التي صوّر فيها اغترابه زاخرة بعدة صور كلية، وجزئية، ومحسنات بديعية، من طباق، ومقابلة، وجناس، وحسن تعليل وغيرها... والتي توسّل بها الشاعر لما يبتغيه من معانٍ، كما أنّها نابعة من البيئة التي عاش فيها، وهي بيئة أواخر القرن السابع، وأوائل القرن الثامن من الهجرة، وقد تنوّعت الصورة في شعر(ابن أيدمر) الذي عبّر فيه عن اغترابه بين حسيّة، ووجدانية.

٤-١١ الموسيقا الشعرية، ونقصد بها الموسيقا الخارجية، والتي تتمثل في الأوزان، والقوافي، فقد التزم بها(ابن أيدمر)؛ إذ نظم شعره الذي عبّر فيه عن اغترابه على قواعد الشعر العمودي التقليدي ، وإن كان أحيانًا ينكسر منه الوزن.

ولعلي بهذا العرض أكون قد بلغتُ الغاية، والهدف، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصَلَّ الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

إبراهيم أنيس (دكتور)

- دلالة الألفاظ: الطبعة الثالثة، دار الأنجلو المصرية، مصر ١٩٧٦م.

ابن أيدمر: فلك الدين أبو نصر محمد بن سيف الدين أيدمر المستعصمي (ت ٧١٠ هـ)

- **الدر الفريد وبيت القصيد: صورة عن المخطوط أصدرها فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت ١٩٨٨م.**

ابن الطقطقي: أبو جعفر محمد بن علي بن محمد ابن طباطبا العلوي (ت ٧٠٩ هـ)

- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦م.**

ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي(ت ١٠٨٩ هـ).

- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب المؤلف: تحقيق/ عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار ابن كثير دمشق، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩١م.**

ابن الفوطي الشيباني: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣ هـ)

- **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب: تحقيق/ مصطفى جواد (دكتور)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا(د.ت).**
- **مجمع الآداب في معجم الألقاب: تحقيق/ محمد الكاظم، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران ١٤١٦ هـ.**

ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الأفريقى (ت٦٣٠هـ).

- لسان العرب: الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت (د.ت).

أبو نعيم الأصفهاني: أحمد بن عبدالله أبو نعيم الأصفهاني(ت٤٣٠هـ) .

- حلية الأولياء: الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٠م.

أبو هلال العسكري: أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥ هـ)

- جمهرة الأمثال: ضبطه وكتب هوامشه/ أحمد عبد السلام (دكتور)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

أحمد علي إبراهيم الفلاحي (دكتور)

- الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري دراسة اجتماعية نفسية: الطبعة الأولى، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ١٤٣٤هـ /٢٠١٣م.

إيليا الحاوي

- في الأدب والنقد: دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان ١٩٧٩م.

البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ)

- الجامع الصحيح: الطبعة الأولى، دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ.

تامر سلوم

- نظرية اللغة والجمال في الشعر العربي: الطبعة الأولى، دار الحوار، سوريا ١٩٨٣م.

حسين محمد حسن حمّاد (دكتور)

- الاغتراب عند إيريك فروم، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٩٥م.

زكي مبارك

- العشاق الثلاثة: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان (د.ت).

سعود محمود عبدالجابر(دكتور)

- ابن أيدمر؛ حياته وشعره: الطبعة الأولى، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان١٤٣١هـ/٢٠١١م.

سعيدة بنت خاطر الفارسي(دكتور)

- انتحار الأوتاد في اغتراب سعدية مفرح: مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠٠٥م.
- سوسنة المنافي؛ حميدة خميس وتحولات الاغتراب السياسي: مكتبة الآداب، القاهرة، مصر٢٠٠٣م.

شاخت: ريتشارد شاخت

- الاغتراب: ترجمة /كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت١٩٨٠م.
- مستقبل الاغتراب: ترجمة/ وهيبة طلعت أبو العلا، منشأة المعارف (د. ت).

عبدالرازق خشروم

- الغربة في الشعر الجاهلي: منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٢م.

عبدالقادر القط (دكتور)

- **في الشعر الإسلامي والأموي: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م.**

عبد اللطيف خليفة

- **دراسات في سيكولوجية الاغتراب: الطبعة الأولى، دار غريب، القاهرة ٢٠٠٣م.**

فاطمة محمد حميد السويدي

- **الاغتراب في الشعر الأموي: صـ ٣، ط١، مكتبة مدبولي ١٩٩٧م.**

فتحي إرشيد محمد شديفات

- **ظاهرة الاغتراب في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر العباسي الأول: الطبعة الأولى، دار الطريق للنشر، الأردن ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.**

الكتبي: محمد بن شاكر الكتبي

- **فوات الوفيات: تحقيق/ إحسان عباس(دكتور)، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م.**

ماهر حسين فهمي

- **الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث: معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٠م.**

مجاهد عبدالمنعم مجاهد (دكتور)

- **الإنسان والاغتراب: الطبعة الأولى، سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق١٩٨٥م.**

محمود رجب (دكتور)

- **الاغتراب سيرة ومصطلح، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨م.**

محمود بن محمد الحداد (أبو عبد الله)

- **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي وابن السبكي والزبيدي: دار العاصمة للنشر، الرياض، السعودية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.**

محمود رجب (دكتور)

- **الاغتراب سيرة ومصطلح، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨م.**

مراد وهبة

- **معجم المصطلحات الفلسفية: الطبعة الرابعة، دار قباء، القاهرة، مصر ١٩٩٨م.**

ميشيل مان

- **موسوعة العلوم الاجتماعية: ترجمة / عادل الهواري، وآخرين، مكتبة الفلاح، بيروت ١٩٩٤م.**

مي يوسف خليف (دكتور)

- **ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات: الطبعة الأولى، دار الثقافة، القاهرة ١٩٩٠م.**

وفاء إبراهيم (دكتور)

- **الفلسفة والشعر الوعي بين المفهوم والصورة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٩م.**

وليد محمود خالص(دكتور)

- **مقدمة كتاب الدر الفريد وبيت القصيد: المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٣م.**

المخطوطات

آمال محمد بشير (دكتور)

- **الاغتراب وعلاقته بمفهوم الذات: مخطوطة (دكتوراه)، كلية التربية، جامعة عين شمس، مصر ١٩٨٩م.**

سعيدة بنت خاطر الفارسي(دكتور)

- **الاغتراب في الشعر النسوي الخليجي: مخطوطة (دكتوراه)، كلية دار العلوم بالقاهرة، مصر ٢٠٠٢م.**

الدوريات

- **مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد (٥)، العدد (٢.)، الأردن ١٩٩٠م.**
- **المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (١٠) العدد(٢)، الأردن ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.**

- مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية المجلد(٢٦)، العدد(٣-٤) سوريا ٢٠١٠م.
- مجلة جامعة الملك سعود- الآداب، المجلد (٢٣)، العدد (٢)، السعودية ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
- مجلة دراسات البصرة السنة السابعة العدد (١٤)، العراق ٢٠١٢م.
- مجلة عالم الفكر، المجلد(١٠) العدد(١)، الكويت ١٩٧٩م.
- مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة (جامعة الأزهر) العدد (٢٣)، مصر ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية، (دبي)، العدد (٢١-٣٠)، الإمارات ٢٠٠٥م.